لرحمن في وقته ، وتملك مصر ، والشام ، والشرق والكرك ، واليمن ، وبلاد الشرق وعارض الملوك والسلاطين ، وحاصر القلاع ، وفتح البلاد ، وجند الاجناد ، وهذه الجراكسة التي هي اليوم ملوك مصر والشام ومحامي الحرمين الشريفين ، مماليك نسل وذرية الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل أبي لمعالي ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، أبو الملوك الأيوبية .(٩٤)

وفاة جمال الدين الوزير

في شعبان من سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، توفي الوزير جمال الدين محبوسا . وكان له نحو سنة مذ مرض فمضى لسبيله .

وكان عظيم القدر والخطر ، كريم الورد والصدر ، عديم النظير في سعة نفسه . لم يرو في كتب الأولين ، أن أحدا من الوزراء اتسعت نفسه ومروءته ، كما اتسعت له نفس جمال الدين ، فلقد كان عظيم الفتوة ، كامل المروة ، وسيرد من أخباره ماتعلم منها صحة قولي .

حكى لي جماعة عن الشيخ ابي القاسم - وهو رجل من الصالحين ، كان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه - قال : لم يزل جمال الدين مشغولا بأمور آخرته مدة حبسه ، وكان يقول : كنت أخشى أن اذقل من الدست الى القبر . قال : فلما مرض ، قال لي بعض الايام : ياأبا القاسم ، إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرفني ، قال : فقلت في نفسي ، قد اختلط عقله ، فلما كان الغد ، أكثر السؤال عن ذلك الطائر ، وإذا طائر أبيض لم أر مثله قد سقط ، فقلت له : جاء الطائر ، فاستبشر ثم قال : جاء الحق وأقبل على الشهادة وذكر الله تعالى ، وتوفي . فلما توفي طار ذلك الطائر ، قال : فعلمت أنه رأى شيئا في معناه . ودفن بالموصل نحو سنة . وكان قد قال للشيخ أبي القاسم : أن بيني وبين أسد الدين شيركوه

عهدا ، من مات منا قبل صاحبه حمله الحي إلى المدينة على ساكنها السلام ، فدفنه بها في التربة التي عملها ، فإذا أنامت فامض إليه وذكره فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين في المعنى ، فاعطاه مالا صالحا ليحمله به الى مكة والمدينة ، وأمر أن يحج معه جماعة من الصوفية ، ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النزول والرحيل وقدوم مدينة تكون في الطريق ، وينادون في البلاد للصلاة عليه ، ففعلوا ذلك ، فكان يصلى عليه في كل مدينة خلق كثير ، فلما كان « بالحلة » ، اجتمع الناس للصلاة عليه ، وإذا شاب قد أرتفع على موضع عال ، ونادى بأعلى صوته ملعلعا يقول :

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما
سرى جوده فوق الركاب ونايله

يمر على الوادي فتثني رماله
عليه وبالنادي فتبكي أرامله

فلم ير باكيا أكثر من ذلك اليوم . ثم وصلوا به إلى مكة ، وطافوا به حول الكعبة ، وصلوا عليه بالحرم وحملوه إلى المدينة وصلوا عليه أيضا . ودفنوه بالرباط الذي أنشأه بها ، بينه وبين قبر النبي ، نحو خمسة عشر ذراعا .

في ذكره شيء من اخباره رحمه الله

كان رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلا للمال ، رحيما بالناس متعطفا عليهم ، عادلا فيهم ، فمن أعماله الحسنة ، أنه جدد بناء مسجد الخيف بمنى ، وغرم عليه أموالا جزيلة عظيمة وبنى الحجر بجانب الكعبة ، ورأيت اسمه عليه ، ثم غير وبني غيره سنة ست وسبعين وخمسمائة .

وزخرف الكعبة بالذهب والذقرة ، فكل مافيها من ذلك ، فهو عمله

إلى سنة تسع وستمائة . ولما أراد ذلك ، أرسل إلى الامام المقتفي لأمر الله هدية جليلة حتى أذن له فيه ، وأرسل إلى أمير مكة ، عيسى ابن أبي هاشم ، خلعا سنية وهدية كثيرة حتى مكنه .

وعمر أيضا المسجد الذي على جبل عرفات ، وعمل الدرج التي يصعد فيها إليه ، وكان الناس يلقون شدة في صعودهم .

وعمل بعرفات مصانع للماء ، وأجرى الماء إليها من نعمان (٩٥) في طرق معمولة تحت الجبل مبنية بالكلس ، فغرم على ذلك مالا كثيرا ، وكان يعطى أهل نعمان كل سنة مالا ليتركوا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحاج بعرفات ، فكان الناس يجدون به راحة عظيمة .

ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعا ، أنه بنى سورا على مدينة النبي صلى الله وعليه وسلم ، فانها كانت بغير سور تنهبها الأعراب ، وكان اهلها في ضنك وضر معهم ، رأيت بالمدينة انسانا يصلي الجمعة ، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له ، فسألناه عن سبب ذلك ، فقال : يجب على كل من بالمدينة أن يدعو له ، لأننا كنا في ضر وضيق ، ونكد عيش مع العرب ، لايتركون لأحدنا مايواري عورته ، ولامايشبع جوعته ، فبنى علينا سورا احتمينا به ممن يريدنا بسوء ، فاستغنينا فكيف لاندعو له وكان الخطيب بالمدينة يقول في خطبته : اللهم صن حريم من صان حرم نبيك بالسور ، محمد بن علي بن أبي منصور . فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه فخرا ، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الارض وغربها .

وسمعت عن متولي ديوان صدقاته التي يخرجها على باب داره للفقراء سوى الادرارات والتعهدات ، قال : كان له كل يوم مائة دينار يتصدق بها على باب داره .

ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناس مثلها ، الجسر الذي بناه

على الدجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس ، إلا أنه لم يفرغ لأنه قبض قبل فراغه . وبنى أيضا جسرا على نهر الياريار عند الجزيرة أيضا .

وبنى الربط بالموصل ، وسنجار ، ونصيبين ، وغيرها . وقصده الناس من أقطار الأرض ويكفيه أنه الذي احتاج إليه ابن الخجندي رئيس أصحاب الشافعي بأصفهان ، وابن الكافي قاضي همذان وقصداه ، فأخرج عليهما مالا جزيلا ، وكذلك غيرهما من الصدور ، والعلماء ، ومشايخ الصوفية .

وصارت الموصل في أيامه مقصدا وملجأ . وكان أحب الأشياء إليه إخراج المال في الصدقات ، فكان يضيق على نفسه وبيته ليتصدق . حكى لي والدي قال : كنت يوما عنده وقد أحضر بين يديه قندزا ليعمل على وبر له ليلبسه بخمسة دنانير ، فقال : هذا كثير ، اشتروا لي قندزا بدينارين وتصدقوا بثلاثة دنانير ، قال : فراجعناه غير مرة فلم يقبل . (وحكى لي من أثق إليه من العدول بالموصل : إن الأقوات تعذرت في بعض السنين بها وغلت الأسعار ، وكان بالموصل رجل من الصالحين ، يقال له الشيخ عمر الملاء ، فأحضره جمال الدين وسلم إليه مالا ، وقال له : تخرج هذا المال على مستحقه ، وكلما فرغ أرسل إلي لأنفذ غيره فلم تمض إلا أيام يسيرة ، حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين ، فأرسل إليه يعرفه بنفاد ذلك المال ، فانفذ له شيئا آخر ففني ، ثم أرسل يطلب ما يخرجه ، فقال جمال الدين للرسول : والله ما عندي شيء ، ولكن خذ هذه المحافر (التي في داري) وتصدقوا بثمنها (إلى أن يأتيني شيء آخر فنرسله إلى الشيخ عمر ، فبيعت وتصدقوا بثمنها (٩٦)) وعرفوه ذلك ، فلم يكن عنده ما يرسله ، فأعطاه ثيابه التي كان يلبسها مع العمامة التي على رأسه وأرسل الجميع ، وقال للرسول ، قل للشيخ ، لايمتنع من الطلب فهذه أيام مواساه ، فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر ، بكى وباعها وتصدق بثمنها .

وحكى لي بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائي شيخ الشيوخ بالموصل ، قال : أحضرني الشيخ وقال لي : إنطلق إلى مسجد الوزير - وهو بظاهر الموصل - واقعد هناك ، وإذا أتاك شيء فاحفظه إلى أن أحضر عندك ، ففعلت ، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحمالين يحملون أحمالا من النصافي والخام ، وإذا جاء نائب جمال الدين مع الشيخ ، ومعهما قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدد كثير من الجمال ، فقال لي : تأخذ هذه الأحمال وتسير إلى الرحبة ، فتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان ، فإذا أحضر لك فلانا العربي توصل (اليه) هذه الرزمة الاخرى وهذا الكتاب وتسير معه ، فإذا أوصلك إلى فلان العربي توصل اليه هذه الرزمة وهذا الكتاب ، وهكذا إلى المدينة على ساكنها السلام ، توصل إلى وكيلي فلان هذه الاحمال وهذه الكسوات والمال الذي عليها اسم المدينة ليخرجها بمقتضى ما في هذه الجريدة ، ثم تأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة وتسير إليها فيتصدق به وكيلي بها على ما في هذه الجريدة الأخرى .

قال : فسرنا كذلك إلى وادي القرى ، فرأينا به نحو مائة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوف الطريق ، فلما رأونا ساروا معنا إليها ، فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصري - والصاع خمسة عشر رطلا بالبغدادي - فلما رأوا الطعام والمال ، اشتروا كل سبعة أصوع بدينار ، فضج أهل المدينة بالدعاء له ، ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أمرنا ،

وحكى لي والدي ، قال : رأيت جمال الدين بالرقة ، وقد حضر عنده رجل فقيه قبل أن يصير وزيرا وطلب شيئا ، وتردد إليه عدة أيام ثم انقطع ، فسأل عنه ، فقيل إنه سافر ، فشق ذلك عليه ، ثم قال : هكذا تنصرف الأحرار عن أبواب الكلاب ، وكرر ذلك غير مرة ، ثم سأل عنه فقيل : إنه سار نحو ماردين ، فأرسل إليه خلعة ونفقة إلى ماردين ، **ولو رمت شرح مفردات أعماله لأطلت واضجرت** وهي ظاهرة لاتحتاج إلى بيان ، فلهذا تركنا أكثرها .

ذكر فتح قلعة بانياس

في سنة ستين وخمسمائة فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج ، وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم ، فأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم ، وأظهر أنه يريد طبرية ، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها ، فسار نور الدين مجدا إلى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها ، ونازلها وضيق عليها وقاتلها ، وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران (١٤٦ ـ ب) فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه . فلما رآه نور الدين قال له : لو كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى ، وجد في حصارها ، وسمع الفرنج بذلك فجمعوا ، فلم تتكامل عدتهم حتى فتحها ، على ان الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم ، فملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالا .

وعاد نور الدين إلى دمشق ، وفي يده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجواهر ، فسقط من يده في شعراء بانياس ـ وهي كثيرة الأشجار ملتفة الاغصان ـ فلما أبعد من المكان الذي ضاع فيه الفص علم به ، فأعاد بعض أصحابه في طلبه ودلهم على مكانه ، وقال : أظن أنه هناك ضاع ، فعادوا إليه فوجدوه ، فقال بعض الشعراء الشاميين ، أظنه ابن منير من أبيات يمدحه ويهنئه بهذه الغزاة وعود الجبل الياقوت . شعر :

إن يمتر الشكاك فيك بانك الهـ
ـهدي مطفي جمرة الدجال
فلعودة الجبل(٩٧) الذي أضللته
بالامس بين غياطل وجبال
مسترجعا لك بالسعادة آية
ردت مطال الفال غير مطال

لم يعطها إلا سليمان وقد
ذلت الرباء بموشك الاعجال
زجر جرى لسرير ملكك إنه
كسريره عن كل حد عال
فلو البحار السبعة استهوينه
وأمرتهن قذفنه في الحال (٩٨)

ولما فتح الحصن ، كان ولد معين الدين أنر ـ الذي سلم بانياس إلى الفرنج ـ قائما على رأسه ، فالتفت إليه وقال له : للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان فقال : كيف ذلك ؟ قال : لأن اليوم برد الله جلدة والدك من نار جهنم .

ذكر فتح المنيطرة على يد الشهيد رحمه الله

في سنة إحدى وستين وخمسمائة ، سار نور الدين إلى حصن المنيطرة(٩٩) ـ وهو أيضا للفرنج ـ ولم يحشد له ولاجمع عساكره ، إنما سار على غرة من الفرنج ، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا ، فانتهز الفرصة وسار إلى المنيطرة وحصرها ، وجد في قتالها وأخذها عنوة وقهرا ، وقتل من بها وسبى وغنم غنيمة كثيرة لأمن من بها فأخذتهم خيل الله (بغتة وهم لايشعرون) (١٠٠) ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لدفعه إلا وقد ملكه ، ولو علموا أنه جريدة لأسرعوا إليه ، إنما لم يظنوا إلا أنه في جمع كثير ، فلما ملكه تفرقوا وأيسوا منه .

ذكر عودة أسد الدين شيركوه إلى مصر مرة أخرى

في ربيع الآخر من سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، عاد أسد الدين وسار إلى مصر . وكان بعد عوده من مصر ، لايزال يحدث نفسه

بقصدها ومعاودتها ، حريصا على الدخول إليها ، يتحدث به مع كل من يثق إليه . وكان مما يهيجه على العود ، زيادة حقده على شاور وما عمل معه . فلما كان هذه السنة تجهز وسار إليها ، وسير معه الملك العادل نور الدين محمود جماعة من الأمراء ، فجد في السير على البر ، وترك بلاد الفرنج عن يمينه ، فوصل إلى الديار المصرية ، فقصد إطفيح وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي ، ونزل بالجيزة مقابل مصر ، وتصرف في البلاد الغربية ، وأقام بها نيفا وخمسين يوما .

وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين ، قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم ، فأتوه على الصعب والذلول ، فتارة يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجد والتشمير ، وتارة يحدوهم خوفهم أن يملكها العسكر النوري ، فجدوا على الاسراع في المسير ، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم ، فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي ، وكان أسد الدين والعسكر النوري قد ساروا إلى الصعيد ، فبلغوا مكانا يعرف بالبابين ، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه ، فادركوه به في الخامس والعشرين من جمادى الاولى ، وكان قد أرسل إليهم جواسيس ، فعادوا وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجدهم في طلبه ، فعزم على لقائهم وقتالهم وأن تحكم السيوف بينه وبينهم ، إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطر ، الذي عطبهم فيه أقرب من السلامة ، لقلة عددهم وبعدهم عن بلادهم ، فاستشارهم ، فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام ، وقالوا له : إن نحن انهزمنا - وهو الذي لا شك فيه - فإلى أين نلتجيء وبمن نحتمي ، وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا ، ويودون لو شربوا دماءنا ، ويحق لعسكر عدتهم ألفا فارس - قد بعدت ديارهم ونأى ناصرهم - أن ترتاع من عشرات ألوف ، مع أن كل أهل البلاد عدو لهم . فلما قالوا ذلك ، قام إنسان من المماليك النورية يقال له شرف الدين بزغش - وكان من الشجاعة بالمكان المشهور - وقال : من يخاف القتل والجراح فلا يخدم الملوك ، بل يكون فلاحا أو في بيته

مع النساء ، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلا عذر تعذرون فيه ليأخذن إقطاعكم ، وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه منه مذ خدمتموه إلى يومنا هذا ، ويقول لكم : أتاخذون أموال المسلمين وتفرقون من عدوهم ، وتسلمون مثل الديار المصرية تتصرف فيها الكفار ، فقال اسد الدين : هذا رأيي وبه أعمل ، ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم كثر الموافقون لهم على القتال . فاجتمعت الكلمة على اللقاء ، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبئة ، وقد جعل الاثقال في القلب يتكثر بها ، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فتنهبها أهل البلاد . ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب وقال ولمن معه : إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب ، فهم يجعلون جمرتهم بإزائه وحملتهم عليه ، فاذا حملوا عليكم ، فلا تصدقوهم القتال ولاتهلكوا نفوسكم ، واندفعوا بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم . واختار من شجعان أصحابه جمعا يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم ، ووقف بهم في الميمنة ، فلما تقابل الطائفتان ، فعل الفرنج ماذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظنا منهم أنه فيه ، فقاتلهم من به قتالا يسيرا وانهزموا بين أيديهم فتبعوهم ، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين حملوا على القلب ـ من المسلمين والفرنج ـ فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن الجراح ، وأكثر القتل والاسر وانهزم الباقون . فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب ، رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعا ليس بها منهم ديار ، فانهزموا أيضا . وكان هذا من أعجب ما يؤرخ ، أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل .

ذكره ملك أسد الدين ثغر الاسكندرية

لما انهزم المصريون والفرنج من أسد الدين بالبابين سار إلى ثغر الاسكندرية ، وجبى ما في طريقه من القرايا والسواد من الاموال ،

ووصل الى الاسكندرية فتسلمها بغير قتال ، سلمها أهلها إليه . فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد إلى الصعيد ، فملكه وجبى أمواله ، وأقام به حتى صار شهر رمضان .

وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا الى القاهرة وجمعوا أصحابهم ، وأقاموا عوض من قتل منهم ، واستكثروا وحشدوا وساروا إلى الاسكندرية - وبها صلاح الدين - في عسكر يمنعونها منهم ، فقد أعانهم أهلها خوفا من الفرنج . فاشتد الحصار ، وقل الطعام بالبلد ، فصبر أهله على ذلك .

ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم - وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان - ووصلته رسل المصريين والفرنج يطلبون الصلح ، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد ، فأجابهم إلى ذلك . وشرط أن الفرنج لايقيمون بمصر ولايتسلمون منها قرية واحدة ، وأن الاسكندرية تعاد إلى المصريين ، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا ، وعاد إلى الشام ، فوصل دمشق ثامن عشر ذي القعدة ، وتسلم المصريون الاسكندرية في النصف من شوال .

وأما الفرنج فإنهم استقر بينهم وبين المصريين ، أن يكون لهم بالقاهرة شحنة ، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ، ليمتنع الملك العادل نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم ، ويكون للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار . هذا جميعه يجري بين الفرنج وشاور . وأما العاضد صاحب مصر فليس له من الأمر شيء ، ولايعلم بشيء من ذلك ، قد حكم شاور عليه وحجبه . وعاد الفرنج إلى بلادهم ، وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهير أعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة .

ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل الملك العادل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمي - وهو من اكابر أمرائه ، وخال

صلاح الدين يوسف - ينهي محبته وولاءه ، ويسأله أن يأمره بإصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته ويجمع كلمة الاسلام ، وبذل مالا يحمله كل سنة ، فأجابه إلى ذلك ، وحملوا إلى نور الدين مالا جزيلا ، فبقي الامر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها ، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

عصيان غازي

في هذه السنة عصى الامير غازي بن حسان المنبجي (صاحب منبج) بها على نور الدين - وكان هو اقطعه إياها - فارسل إليه نور الدين عسكرا حصروه بها وأخذها منه ، وأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان ، وكان عاقلا خيرا حسن السيرة ، فبقي بها إلى أن أخذها صلاح الدين منه سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ذكر مفارقة زين الدين الموصل ووفاته وولاية فخر الدين عبد المسيح قلعة الموصل

في سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، سار زين الدين علي بن بكتكين ، نائب اتابك قطب الدين عن الموصل ، إلى إربل ، وسلم جميع ما كان بيده من البلاد والقلاع إلى أتابك قطب الدين ، فمن ذلك سنجار ، وحران ، وقلعة عقر الحميدية ، وقلاع الهكارية جميعها ، وكان نائبه بتكريت الامير تبر ، فأرسل إليه ليسلمها ، فقال : إن المولى أتابك لايقيم بتكريت ، ولابد له من نائب فيها ، وأنا أكون ذلك النائب فليس له مثلي ، فما أمكن محاققته لاجل مجاورة بغداد . وأما شهرزور فكان بها الامير بوزان ، فقال مثله أيضا ، فأقرت بيده ، وكان في طاعة اتابك قطب الدين .

وسبب فراق زين الدين ، أنه أصابه عمى وصمم ، وأقام بإربل

إلى أن توفي بها من سنته وكان قد استولى عليه الهرم ، وضعفت قوته ، وكان خيرا عادلا ، حسن السيرة ، جوادا محافظا على حسن العهد واداء الامانة ، قليل الغدر بل عديمه ، وكان إذا وعد بشيء لابد له من أن يفعله وإن كان فعله خطيرا ، وكان حاله من أعجب الاحوال ، بينما يبدو منه ما يدل على سلامة صدره وغفلته ، حتى يبدو منه ما يدل على إفراط الذكاء وغلبة الدهاء . بلغني أنه أتاه بعض أصحابه بذنب فرس ذكر أنه نفق له ، فأمر له بفرس ، فأخذ ذلك الذنب أيضا غيره من الاجناد وأحضره وذكر أنه نفق له دابة ، فأمر له بفرس ، فتداول ذلك الذنب إثنا عشر رجلا كلهم يأخذ فرسا ، فلما أحضره آخرهم ، قال له : أما تستحيون مني كما أستحي منكم ، قد أحضر هذا الذنب عندي إثنا عشر رجلا وأنا أتغافل لئلا يخجل احدكم ، أتظنون أنني لاأعرفه ، بلى والله ، إنما أردت أن يصلكم عطائي بغير من ولا تكدير ، فلم تتركوني ، وأمر له بفرس آخر ، كما قال بعضهم في شانه :

ليس الغبي بسيد في قومه
لكن سيد قومه المتغابي

وكان يعطي كثيرا ويخلع عظيما ، وكان له البلاد الكثيرة فلم يخلف شيئا ، بل أنفد جميعه في العطاء والانعام على الناس ، فكان يلبس الغليظ ، ويشد على وسطه كل ما يحتاج الجندي إليه من سكين ، ودرفش ، ومطرقة ، ومسلة ، وخيوط ، ودستر ك (١٠١) وغير ذلك . وكان من أشجع الناس ، ميمون النقيبة لم تهزم له راية ، وكان يقوم المقام الخطر فيسلم منه بحسن نيته . وكان تركيا أسمر اللون ، خفيف العارضين ، قصيرا جدا . وبنى مدارس وربطا بالموصل وغيرها ، بلغني أنه مدحه الحيص بيص ، فلما أراد الانشاد قال له : أنا لاأدري ما تقول ، لكنني اعلم أنك تريد شيئا ، وأمر له بخمسمائة دينار وأعطاه فرسا وخلعا وثيابا ، يكون مجموع ذلك نحو ألف دينار . ومكارمه كثيرة نقتصر على بعضها .

ولما توفى كان الحاكم باربل خادمه مجاهد الدين قايماز والمتولي لامورها ، وولي بعد زين الدين ولده الملك المعظم مظفر الدين كوكبوري مدة ، ثم فارقها ، لخلف كان بينه وبين مجاهد الدين ، وجرت أمور يطول ذكرها .

ولما فارق زين الدين الموصل ، إستناب أتابك قطب الدين بالقلعة بعده مملوكه فخر الدين عبد المسيح ، فسلك غير طريق زين الدين ، فكرهه الناس وذموه ، فلم تطل أيامه ، وسيجيء ذكر عزله سنة ست وستين وخمسمائة إن شاء الله تعالى .

ملك نور الدين

قلعة جعبر من صاحبها وكيف

في أول سنة أربع وستين وخمسمائة ، ملك نور الدين قلعة جعبر وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي ، فكانت بيده ويد آبائه قبله من أيام السلطان ملكشاه ، وقد تقدم ذكر ذلك . وهي من أمنع الحصون وأحسنها ، مطلة على الفرات ، لايطمع فيها بحصار .

وأما سبب ملكها ، فإن صاحبها نزل منها يتصيد ، فاخذه بنو كلاب أسيرا وحملوه إلى نور الدين في رجب سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، فاعتقله بحلب وأحسن إليه ، ورغبه في الاقطاع والمال ليسلم إليه القلعة فلم يفعل ، فعدل إلى الشدة والعنف وتهدده فلم يفعل ايضا ، فسير إليها نور الدين عسكرا مقدمه الامير فخر الدين مسعود بن أبي علي بن الزعفراني فحصروها مدة فلم يظفروا منها بشيء ، فامدهم بعسكر جرار ، وجعل على الجميع الامير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية - وهو رضيع نور الدين ، وهو واحد

امرائه ـ فحصرها ايضا فلم ير له فيها مطمعا ، فسلك مع صاحبها طريق اللين ، وأشار عليه أن يأخذ العوض من نور الدين مدينة سروج وأعمالها والملاحة التي بين حلب وباب بزاعة وعشرين ألف دينار معجلة ، وهذا إقطاع عظيم جدا لكنه لاحصن فيه ، وتسلم نور الدين القلعة في أول هذه السنة ، ولما اخذها نور الدين سلمها إلى مجد الدين بن الداية . وكان هذا آخر ملك بني مالك ولكل أمر أمد ، ولكل ولاية نهاية ، (تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء) (١٠٢) (يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)(١٠٣) بلغني أنه قيل لشهاب الدين : أيما أحب إليك وأحسن مقاما ، سروج والشام (أم) القلعة ؟ فقال : هذه أكثر مالا ، والعز بالقلعة فارقناه .

ذكر مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر ثالثة وملكها وقتل شاور وتملك أسد الدين سلطنة مصر

في ربيع الاول من سنة أربع وستين أيضا ، سار أسد الدين شيركوه في العساكر النورية إلى ديار مصر وملكها واستولى عليها . وسبب ذلك ما ذكرناه من استيلاء الفرنج على البلاد بمصر ، وأنهم جعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة ، وأبواب البلدين قد سكنها فرسانهم والمفاتيح معهم ، وتحكموا تحكما كثيرا ، وحكموا على المسلمين حكما جائرا ، فنال المسلمين منهم اذا شديدا ، وجورا عظيما ، وقهرا زائدا ، وطمعوا فيهم وأرسلوا حينئذ إلى ملكهم ، وهو « مرى » ولم يكن ملك الفرنج مذ خرجوا الى الشام مثله شجاعة ومكرا ودهاء يستدعونه ليملك البلاد ، وأعلموه خلوها من ممانع عنها ، وسهلوا أمرها عليه فلم يجبهم إلى المسير ، واجتمع فرسان الفرنج وذوو الرأي والتقدم وأشاروا عليه بالمسير إليها والاستيلاء عليها ، فقال لهم : الرأي عندي أننا لانقصدها فإنها طعمه لنا ، وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين ، وإن نحن قصدناها لنملكها ، فان صاحبها وعساكرها وعامة أهل بلاده

وفلاحيها لايسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها ، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين ، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين ، فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام فلم يصغوا إلى قوله ، وقالوا : إن مصر لامانع لها ولاحافظ ، وإلى أن يصل الخبر الى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم الينا ، نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من امرها ، وحينئذ يتنمى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها ، وكانوا قد عرفوا البلاد ، واذكشف لهم أمرها ، فأجابهم إلى ذلك على كره شديد ، وتجهزوا وأظهروا أنهم على قصد الشام وخاصة مدينة حمص ، فلما سمع نور الدين (بذلك) كاتب عساكره وأجناده وأمرهم بالقدوم عليه .

وجد الفرنج في السير إلى مصر فقدموها ، ونازلوا مدينة بلبيس وحصروها ، فملكوها قهرا ونهبوها وسبوا أهلها مستهل صفر ، وكان جماعة من أعيان المصريين منهم ابن الخياط وابن قرجلة قد كاتبوا الفرنج .

وساروا من بلبيس إلى مصر ، فنزلوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر ، فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بلبيس ، فحملهم الخوف منهم على الامتناع ، فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه ، فلو أن الفرنج احسنوا السيرة في بلبيس لملكوا مصر والقاهرة ، لكن الله تعالى حسن لهم ذلك ليقضي امرا كان مفعولا ، وكان شاور قد أمر باحراق مدينة مصر تاسع صفر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد خوفا عليها من الفرنج ، فبقيت النار فيها تحرقها اربعة وخمسين يوما ، فأرسل الخليفة العاضد لدين الله صاحب ديار مصر الى الملك العادل نور الدين يستغيث به ، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج ، وأرسل في الكتب شعور النساء ، وقال : هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج ، فقام نور الدين لذلك وقعد ، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر .

وأما الفرنج فإنهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على من فيها ، وشاور هو متولي أمر البلد والعساكر والقتال ، فضاق به الأمر وضعف عن ردهم ، فأخذ إلى إعمال الحيلة ، فأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودته ومحبته القديمة ، وأن هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد ، وإنما المسلمون لايوافقونه على التسليم إليه ، ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يسلم البلاد إلى نور الدين ، فاجابه إلى الصلح على أخذ ألف ألف دينار مصرية ، يعجل البعض ويؤخر البعض ، واستقرت القاعدة على ذلك . ورأى الفرنج أن البلاد قد امتنعت عليهم ، وربما سلمت إلى نور الدين فاجابوا كارهين ، وقالوا : ناخذ المال نتقوى به ، ونستكثر من الرجال ونعود الى البلاد بقوة لانبالي معها بنور الدين ولاغيره ، (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين)(١٠٤) فعجل لهم شاور مائة ألف دينار وسألهم الرحيل عن البلد ليجمع لهم المال ، فرحلوا قريبا .

وعاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه مالقي المسلمون من الفرنج ، ويبذل له ثلث بلاد مصر ، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيما عنده في عسكر ، وإقطاعهم عليه خارجا عن الثلث الذي لنور الدين .

وكان نور الدين لما أتاه الرسل أولا من العاضد ، قد أرسل إلى أسد الدين يستدعيه من حمص - وهي إقطاعه - فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها ، وكان سبب وصوله أن كتب المصريين أيضا وصلته في المعنى ، فسار إلى نور الدين وهو بحلب واجتمع به ساعة وصوله ، فعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسره ، وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك ، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والالات والاسلحة وغير ذلك ، وحكمه في العسكر والخزائن ، فاختار من العسكر ألفي فارس ، وأخذ المال ، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس وسار هو ونور الدين إلى دمشق ، فوصلاها سلخ صفر ، ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء ، وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع

أسد الدين عشرين دينارا معونة له على طريقه ، غير محسوبة من القرار الذي له ، وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء والمماليك ، منهم مملوكه عز الدين جرديك ، وعز الدين قليج ، وشرف الدين بزغش ، وعين الدولة الياروقي ، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي ، وصلاح الدين يوسف بن أيوب على كره منه ، (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم)(١٠٥) ، أحب ذور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته ، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه ، وسيرد ذلك إن شاء الله تعالى عند موت شيركوه .

ثم إن أسد الدين شيركوه سار مجدا من رأس الماء منتصف ربيع الأول ،فلما قارب مصر رحل الفرنج عنها عائدين إلى بلادهم بخفي حنين خائبين مما أملوا ، وسب ملكهم كل من أشار عليه بقصد مصر ، وبلغ خبر عودهم نور الدين فسره ذلك وأظهر الاستبشار ، وأمر بضرب البشائر في سائر بلاده ، وبث رسله إلى الآفاق مبشرا به ، والحق بيده ، فإنه كان فتحا جديدا لمصر وحفظا لسائر بلاد الشام وغيرها .

وأما أسد الدين فإنه وصل إلى القاهرة سابع ربيع الاخر ودخلها ، واجتمع بالعاضد لدين الله ، فخلع عليه وعاد إلى خيامه ، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة ولم يمكن شاور المنع عن ذلك لانه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد ورأى هوى العاضد معهم من داخله فلم يتجاسر على إظهار مافي نفسه فكتمه ، وهو يماطل أسد الدين في تقرير ماكان بذل له من المال والاقطاع للعساكر ، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين ، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه ، (وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) (١٠٦) ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الامراء ويقبض عليهم ، فنهاه ابنه الكامل ، وقال له : والله لئن عزمت على هذا الامر لأعرفن أسد الدين ، فقال أبوه : لئن لم أفعل هذا لنقتلن جميعا ، فقال : صدقت ، لئن نقتل ونحن

مسلمون والبلاد بيد المسلمين ، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج ، وليس بينك وبين عود الفرنج الا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارسا واحدا ويملكون البلاد ويظهرون الفساد ، فترك ماكان عزم عليه فلما رأى العسكر المطل من شاور ، إتفق صلاح الدين بن أيوب وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور ، وأعلموا أسد الدين بذلك فنهاهم ، فقالوا : إننا ليس لنا في البلاد شيء مهما هذا على حاله ، فأذكر ذلك ، فاتفق أن بعض الايام سار أسد الدين إلى زيارة قبر الشافعي رضي الله عنه ، وقصد شاور عسكره على عادته للاجتماع به ، فلقيه صلاح الدين يوسف ، وعز الدين جرديك ومعهما جمع من العساكر ، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة ، فقال : نمضي اليه ، فسار وهما معه قليلا ، ثم ساوروه وألقوه عن فرسه فهرب أصحابه فأخذ أسيرا ، ولم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين فسجنوه في خيمة وتوكلوا بحفظه ، فعلم أسد الدين الحال فعاد مسرعا ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه ، وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر في الوقت إلى أسد الدين ، يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله وتابع الرسل بذلك ، فقتل شاور في يومه وهو السابع عشر من ربيع الاخر ، وحمل رأسه الى القصر ، ودخل أسد الدين إلى القاهرة ، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه ، فقال لهم : أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور ، فقصدها الناس ينهبونها فتفرقوا عنه ، وقصد أسد الدين قصر العاضد ، فخلع عليه خلع الوزارة ولقب الملك المنصور أمير الجيوش ، وقصد دار الوزارة - وهي التي كان فيها شاور - فلم ير فيها ما يقعد عليه ، واستقر في الامر وغلب عليه ، ولم يبق له منازع ولامناوىء ، وولى الاعمال من يثق إليه واستبد بالولاية ، وأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه إليها .

- ٦٥٢٧ -

ذكر وفاة أسد الدين شيركوه وملك صلاح الدين يوسف بن أيوب

(حتى إذا فرحوا بما أوتوا اخذناهم بغتة)(١٠٧) لما ثبت قدم أسد الدين شيركوه ، وخلا وجهه ممن يخافه ، وصفت له دنياه ، وارتفع شأنه ، وخافه القاصي والداني لاسيما الفرنجة ، أتاه أمر الله الذي لامحيد عنه ولامفر منه ولايحتمي عليه ملك بكثرة رجال ، ولايمنع عنه المعاقل والمال ، فمرض وتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الاخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ، فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام .

ولما توفي كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه نجم الدين أيوب ابن شاذي ، قد سار معه على كره منه ، حكي لي عنه أنه قال : لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه مستصرخين ومستنجدين ، أحضرني وأعلمني الحال ، وقال : تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه ، تأمره بالحضور وتحثه أنت على الاسراع فما يحتمل الأمر التأخير . قال : ففعلت ، فلما فارقنا حلب على ميل منها لقيناه قادما في هذا المعنى ، فقال له نور الدين : تجهز للسير ، فامتنع خوفا من غدرهم اولا وعدم ما ينفقه في العساكر ثانيا ، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال ، وقال له : إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر ، فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها ، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج ولايبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره قال : فالتفت إلي عمي أسد الدين ، وقال : تجهز يايوسف قال : فكانما ضرب قلبي بسكين ، فقلت : والله لو أعطيت ملك مصر ماسرت إليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق مالا أنساه أبدا ، فقال عمي لنور الدين : لابد من مسيره معي فترسم له ، فأمرني نور الدين وأنا أستقيله ، فانفض المجلس ، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ولم يبق غير المسير ، فقال لي نور الدين : لابد من مسيرك مع عمك ، فشكوت

إليه الضائقة وقلة الدواب وما أحتاج إليه ، فأعطاني ما تجهزت بـه فكانما أساق إلى الموت ، وكان نور الدين مهيبـا مخـوفا مـع لينه ورحمته ، فسرت معه ، فلما استقر أمره وتوفي ، أعطـاني الله مـن ملكها مالا كنت اتوقعه . هذا حكي لي عنه .

وأما كيفية ولايته ، فإن جماعة من الامـراء الذورية الذين كانوا بمصر ، طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة ، منهـم : الأمير عين الدولة الياروقي ، وقطب الدين خسرو بن تليل - وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربـل - ومنهـم : سـيف الدين علي بن أحمد الهـكاري - وجـده كان صـاحب قـلاع الهكارية - ومنهم : شهاب الدين محمود الحـارمي - وهـو خـال صلاح الدين - وكل من هؤلاء يخطبها وقد جمـع ليغـالب عليهـا ، فأرسل الخليفة العـاضد لدين الله صـاحب مصر إلى صـلاح الدين وأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليه الامر بعـد عمه ، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صـلاح الدين ، فإنه ظن أنه إذا ولى صلاح الدين - وليس له عسكر ولارجـال - كان في ولايته مستضعفا يحكم عليه ولايجسر على المخالفة ، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه ، فاذا صار معه البعض خـرج الباقين وتعود البلاد إليه وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفـرنج ونور الدين « اردت عمـرا واراد الله خـارجة »(١٠٨) فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فالزمه بـه وأخـذ كارها ، « إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بـالسلاسل » ، فلمـا حضر في القصر خلع عليه خلعـة الوزارة ، الجبـة والعمـامة وغيرهما ، ولقب الملك الناصر ، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها ، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الامراء الذين يريدون الأمر لأنفسـهم ولاخدموه ، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه ، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه ، وقال له : إن هذا الأمـر لايصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل ، فمـال إلى صلاح الدين . ثم قصد شهاب الدين الحارمي ، وقـال له : إن هـذا صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك وقد استقام الامر له ، فلا تكن

أول من يسعى في إخراجه عنه ولايصل إليك ، ولم يزل به حتى أحضره أيضا عنده وحلفه له . ثم عدل إلى قطب الدين ، وقال له إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ، ولم يبق غيرك وغير الياروقي وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين ان اصله من الاكراد ، فلا تخرج الامر عنه إلى الاتراك ، ووعده وزاد في إقطاعه فأطاع صلاح الدين أيضا ، وعدل إلى عين الدولة الياروقي - وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعا - فلم تنفعه رقاه ولانفذ فيه سحره ، وقال : أنا لا أخدم يوسف أبدا ، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره فأذكر عليهم فراقه ، وقد فات الامر (ليقضي الله امرا كان مفعولا) ،(الأنفال (١٤٢)) ، وثبتت قدم صلاح الدين ، ورسخ ملكه ، وهو نائب عن الملك العادل نور الدين ، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها ، ولايتصرفون إلا عن أمره ، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالامير الاسفهسلار ، ويكتب علامته في الكتب تعظما أن يكتب اسمه ، وكان لايفرده في كتاب ، بل يكتب الأمير الأسفهسلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا ، واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الاموال مما كان أسد الدين قد جمعه ، وطلب من العاضد شيئا يخرجه فلم يمكنه منعه ، فمال الناس إليه وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الامر والثبات فيه ، وضعف أمر العاضد ، فكان كالباحث عن حتفه بظلفه ، وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يسير إليه إخوته فلم يجبه إلى ذلك ، وقال : أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد . ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر ، فسير نور الدين العساكر وفيهم إخوة صلاح الدين ، منهم شمس الدولة توران شاه بن أيوب - وهو أكبر من صلاح الدين - فلما أراد أن يسير ، قال له : إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر ، فإنك تفسد البلاد وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه ، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم مقامي ، وتخدمه بنفسك كما تخدمني ، فسر إليه وأشدد أزره وساعده على ما هو بصدده . فقال : أفعل معه من

الخدمة والطاعة مايتصل بك (خبره) إن شاء الله تعالى . فكان معه كما قال .

ذكر حصر الافرنج مدينة دمياط في سنة خمس وستين

في سنة خمس وستين وخمسمائة ، في أوائل صفر ، نزل الفرنج على مدينة دمياط من الديار المصرية ، فكان افرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك فكاتبوا الفرنج الذين بالاندلس وصقلية وغيرهما يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر ، وأنهم خائفون على البيت المقدس من المسلمين ، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة ، فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح ، واتعدوا النزول على دمياط ظنا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهرا يملكون به ديار مصر ، (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا)(١٠٩) .

فلما نازلوها حصروها وضيقوا على من بها ، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل ، وحشر فيها كل من عنده وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر ، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف ، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الافرنج ، وإن سار إليها ، خلفه المصريون في مخلفيه ، ومخالفي عسكره بالسوء وخرجوا عن طاعته ، وساروا من خلفه والفرنج من أمامه ، فجهز نور الدين إليه العساكر أرسالا ، كلما تجهزت طائفة سيرها ، فسارت إليه العساكر يتلو بعضها بعضا .

ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر ، فدخل بلاد الفرنج فنهبها وأغار عليها ووصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد من مانع ، فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر ، ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وإخرابها ، رجعوا خائبين لم يظفروا

بشيء ، وهذا موضع المثل : ذهبت الذعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين . فوصلوا إلى بلادهم فرأوها خاوية على عروشها ، وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما ، أخرج فيها صلاح الدين أموالا لاتحصى ، حكي لي عنه أنه قال : مارأيت أكرم من العاضد ، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصري ، سوى الثياب وغيرها .

ذكر حصر نور الدين رحمه الله الكرك

وفي هذه السنة سار نور الدين إلى بلاد الفرنج فحصر حصن الكرك في رجب . وكان سبب حصره ، أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سار عن دمشق إلى مصر ، وسير معه نور الدين عسكرا ، واجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودة مالا يعد ، فخاف نور الدين عليهم ، فسار إلى الكرك ونزل عليه وحصره ، وسار نجم الدين أيوب ومن معه سالمين ، ونصب نور الدين على الكرك المجانيق ، فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وساروا إليه وأن ابن الهنفري ، وفيليب بن الرفيق ـ وهما فارسا الفرنج في وقتهما ـ في المقدمة إليه ، فرحل نور الدين نحوهما ليلقاهما ومن معهما قبل أن يلتحق ، بهما باقي الفرنج ، فكانا في مائتي فارس والف تركبلي ومعهم من الراجل عالم كثير ، فلما قاربهما رجعا القهقرى إلى من وراءهم من الفرنج ، وقصد نور الدين الشام في وسط بلادهم ، ونهب ما كان على طريقه إلى أن وصل الشام فنزل بعشترا (١١٠) وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم ، فلم يبرحوا من مكانهم خوفا منه ، وأقام هو حتى أتاه خبر الزلزلة الحادثة بحلب وأعمالها وسائر بلاد الشام فرحل .

ذكر الزلزلة التي جرت بالشام وما فعله نور الدين

وفي هذه السنة أيضا في ثاني عشر شوال ، كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها عمت أكثر البلاد من الشام ، ومصر ، وديار الجزيرة ، والموصل ، والعراق وغيرها ، إلا أن أشدها وأعظمها كان بالشام ، فخربت بعلبك ، وحمص ، وحماة ، وشيزر ، وبعرين ، وحلب وغيرها من البلاد ، وتهدمت أسوارها وقلاعها ، وسقطت الدور على أهلها ، وهلك منهم ما يخرج عن الحد والاحصاء ، فلما أتاه هذا الخبر ، سار الى بعلبك ليعمر ما أنهدم من أسوارها وخلوها من أهلها ، فرتب ببعلبك من يحميها ويعمرها ، وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك ، ثم إلى حماه ثم إلى بارين . وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج لا سيما قلعة بارين ، فإنها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء ألبته ، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير ، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلا ونهارا . وبلغ الرعب بمن نجا كل مبلغ ، وكانوا لايقدرون على أن يأووا إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفا من الزلزلة ، فانها عاودتهم غير مرة . وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج . فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأ هلها ، أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه ، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين ، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوار جميع البلاد وجوامعها ، فأخرج من المال مالا يقدر قدره .

وأما بلاد الفرنج فإنها أيضا فعلت بها الزلزلة قريبا من هذا ، وهم أيضا يخافون نور الدين على بلادهم ، فاشتغل كل منهما بعمارة بلاده .

ذكره غزوة لسرية نورية

كان شهاب الدين محمود بن إلياس بن إيلغازي بن أرتق صاحب

قلعة ألبيرة ، وقد سار في عسكره - وهم مائتا فارس - إلى الخدمة الذورية وهو بعشترا ، فلما وصل إلى البوة - وهي من أعمال بعلبك - ركب متصيدا ، فصادف ثلاثمائة فارس للفرنج قد ساروا للاغارة على بلاد الاسلام ، وذلك سابع عشر شوال من هذه السنة ، فوقع بعضهم على بعض واقتتلوا ، واشتد القتال ، وصبر الفريقان لاسيما المسلمون ، فان ألف فارس منهم لاتصبر لحملة ثلاثمائة فارس من الفرنج ، وكثر القتلى بين الطائفتين ، فانهزم الفرنج وعمهم القتل والاسر ، فلم يفلت منهم الا من لايعتد به . قال تعالى : (ولو تواعدتم لاختلفتم في المعياد ولكن ليقضي الله امرا كان مفعولا)(١١١) . ثم إن شهاب الدين سار بالاسرى ورؤوس القتلى إلى نور الدين ، فركب هو والعساكر الى لقائه واستعرض الاسرى ورؤوس القتلى ، فرأى فيها رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الاكراد ، وكانت الافرنج تعظمه لشجاعته ودينه ، ولانه شجا في حلوق المسلمين ، وكذلك رأى رأس غيره من مشهوري الفرنج فازداد سروره ، (وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين (١١٢))

في ذكر وفاة أتابك قطب الدين مودود بن الشهيد زنكي بن آقسنقر رضي الله عنه وملك ابنه سيف الدين

في شوال من سنة خمس وستين وخمسمائة ، توفي أتابك قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد زنكي بن آق سنقر رضي الله عنه بالموصل ، وكان مرضه حمى حادة . ولما اشتد مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكي - وهو أكبر أولاده وكان النائب عن قطب الدين حينئذ والقيم بأمر دولته فخر الدين عبد المسيح ، وكان يكره عماد الدين لانه كان قد أكثر المقام عن عمه الملك العادل نور الدين وخدمه وتزوج ابنته وكان نور الدين يبغض فخر الدين لظلم

كان فيه ويذمه ، ويلوم أخاه قطب الدين على توليته الامور ، فخاف فخر الدين أن يتصرف عماد الدين في أموره عن أمر عمه فيعزله ويبعده ، فاتفق هو والخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش - زوجة قطب الدين - فردوه عن هذا الرأي ، فلما كان الغد أحضر الامراء واستحلفهم لولده سيف الدين غازي وتوفي وقد جاوز عمره أربعين سنة . وكان تام القامة ، كبير الوجه ، أسمر اللون واسع الجبهة ، جهوري الصوت ، وكانت ولايته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا .

ولما توفي استقر سيف الدين في الملك ، ورحل عماد الدين الى عمه نور الدين شاكيا مستنصرا ، وكان فخر الدين هو الذي يدبر أمور سيف الدين ويحكم في مملكته ، وليس لسيف الدين من الأمر إلا اسمه ، فانه كان في عنفوان شبابه وغرة حداثة .

حادثة تحث على العدل

من جملة أعمال جزيرة ابن عمر ، قرية تسمى العقيمة تقابل الجزيرة ، يفصل بينهما دجلة ، ولها بساتين كثيرة ، وبعضها تمسح أرضه ويؤخذ على كل جريب من الارض التي قد زرعت شيء معلوم ، وبعضها عليه خراج ولا مساحة عليه ، وبعضها مطلق منهما ، فالمسوح منها لايحصل لأصحابه إلا القدر القريب ، وكان لنا بها عدة بساتين .

فحكى لي والدي قال : جاءنا كتاب فخر الدين عبد المسيح إلى الجزيرة - وأنا أتولى حينئذ ديوانها والحكم إلي فيه على ما شوهد - يأمر بأن يجعل بساتين العقيمة كلها ممسوحة ، قال : فشق ذلك علي لأجل أصحابها ، ففيها ناس صالحون ولي بهم أنس ، وهم فقراء . قال : فراجعته ، وقلت له : لاتظن أنني أقول هذا لأجل ملكي ، لا والله ، إنما أريد أن يدوم الناس على الدعاء

للمولى قطب الدين وأنا أمسح ملكي جميعه . قال : فأعاد الجواب يأمر بالمساحة ، ويقول : تمسح أولا ملكك ليقتدي بك غيرك ، ونحن نطاق لك مايكون عليه ، قال : فأظهرنا الأمر ، وشرع الذواب يمسحون ، وكان بالعقيمة رجلان صالحان وبيني وبينهما مودة ، اسم أحدهما يوسف والآخر عبادة ، قال : فحضرا عندي وتضررا من هذه الحال ، وسألاني المكاتبة في المعنى ، فأظهرت لهما كتاب فخر الدين جوابا عن كتابي ، فشكراني ثم قالا : وأيضا تعود تراجعه . فعاودت القول ، فأصر على المساحة فعرفتهما الحال . قال : فلما مضى عدة أيام ، عدت يوما إلى داري راكبا ، وإذا هما قد صادفاني على الباب ، فقلت في نفسي : عجبا لهذين الشيخين ، قد رأيا مراجعتي وهما يطلبان مني مالا أقدر عليه . قال : فسلمت عليهما وسلما علي ، وقلت لهما : والله إنني أستحي منكما كلما جئتما في هذا الامر ، وقد رأيتما الحال كيف هو . فقالا : صدقت ، ولم نحضر إلا لنعرفك أن حاجتنا قضيت . قال : فظننت أنهما قد أرسلا إلى الموصل من يشفع لهما ، فدخلت داري وأدخلتهما معي ، وسألتهما عن الحال كيف هو ومن الذي سعى لهما ، فقالا : إن رجلا من الصالحين الأبدال شكونا إليه حالنا فقال : قد قضيت حاجة أهل العقيمة جميعهم . قال : فوقع عندي من هذا فكر ، تارة أصدقهما لما أعلم من صلاحهما ، وتارة أعجب من سلامة صدريهما ، كيف يعتمدان على هذا القول ويعتقدانه واقعا لا شك فيه . قال : فلما كان بعد أيام وإذا قد وصل قاصد من الموصل بكتاب يأمر فيه بإطلاق مساحة العقيمة ، وإطلاق كل مسجون وبالصدقة . فسألنا القاصد عن السبب ، فقال : إن أتابك شديد المرض . قال : فأفكرت في قولهما وتعجبت منه ، ثم توفي بعد يومين من هذا ، ورأيت والدي إذا رأى أحد الرجلين يبالغ في إكرامه ويحترمه ويقضي أشغاله ، واتخذهما أصدقاء .

فصل في ذكر بعض سيرة أتابك قطب الدين رضي الله عنه

كان رحمه الله ورضي عنه من أحسن الملوك سيرة ، وأعفهم عن أموال رعيته ، محسنا إليهم كثير الانعام عليهم ، محبوبا إلى صغيرهم وكبيرهم ، عطوفا على مأمورهم وأميرهم ، حليما عن المذنبين منهم ، قليل المؤاخذة لهم على زللهم ، كريم الاخلاق حسن الصحبة لهم ، فكأن القائل أراده بقوله إذ يقول :

خلق كماء المزن طيب مذاقه
والروضة الغناء طيب نسيم
كالسيف لكن فيه حلم واسع
عمن جنى والسيف غير حليم
كالغيث إلا أن وابل جوده
أبدا وجود الغيث غير مقيم
كالدهر إلا أنه ذو رحمة
والدهر قاسي القلب غير رحيم

وكان رضي الله عنه سريع الانفعال للخير ، بطيئا عن الشر . حدثني والدي قال : إستدعاني يوما وهو بالجزيرة وكنت أتولى أعمالها له ، فلما حضرت عنده قال لي : بلغني أنك تهمل هذه الجنايات(١١٣) ولاتحفظها ، فقلت له : إنني أعجز عن حفظها لأنني أكون في بيتي والدز دار يفعل في القلعة مايريد ، ثم التفاوت ليس بعظيم وأخاف من الاستقصاء فيها ، لو دعي على بعض هؤلاء الملوك ـ وأومأت إلى أولاده ـ لكانت شعرة منه تساوي الدنيا وما فيها ، ولنا مواضع تحتمل العمارة لو عمرت يتحصل منها أضعاف هذا . فقال لي : جزاك الله خيرا ، فلقد نصحت وأديت الامانة ، واشرع في عمارة هذه الأماكن التي تحتمل العمارة . قال : ففعلت وكبرت منزلتي عنده ، ولم يزل يثني علي .

قال : وكان السلطان كثير الصبر والاحتمال من أصحابه ، لقد صبر من ذوابه زين الدين وجمال الدين وغيرهما على ما لم يصبر عليه سواه .

وكان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين ، كثير المساعدة له والانجاد بنفسه وعسكره وأمواله ، حضر معه المصاف بحارم وفتحها ، وفتح بانياس ، وكان يخطب له في بلاده باختياره من غير خوف .

وكان إحسانه إلى أصحابه متتابعا من غير طلب منهم ولاتعريض . حكى لي والدي قال : دخلت إليه مرة ، فسألني عن ما أتولاه من الأعمال وأحوال الرعية فيها وأنا أخبره . ثم سألني عن القرايا التي خاصة ومن يتولى قسمتها واستخلاص أموالها ، فقلت له : أنا أفعل ذلك بنفسي ، فقال : وما الذي قرر لك عليها في مقابل تعبك ؟ فقلت : لي من إنعام مولانا مالا حاجة لي إلى تقرير شيء آخر ، ثم المقرر لي من الجامكية والرسوم إنما هو على أعمال من جملتها هذه القرايا ، فقال : لايجوز تتعب بدون فائدة . ثم أمر لي بعمالة الخاص جميعها في بلد الجزيرة ، فدعوت له . ولما خرجت رأيتها كثيرة يحصل منها مايزيد على سبعمائة دينار أميري ، وليس لي بها من العمل كثير أمر . فقلت في نفسي : ربما لايعلم مقدارها ، فإذا علمه يظن أنني اغتنمت غرته ، فأرسلت إليه مع حاجبه أقول له : إن هذه العمالة يتحصل منها في هذا الرخص كذا وكذا دينار ، وأنا أقنع ببعض ذلك ، قال : فلما سمع قولي ضحك ، وقال : هذا كلام رجل عاقل والجميع له . قال : وكان يدخل إلى الخزانة بعض الاوقات ونحن فيها - إذ كنت أتولاها - فلا يخرج منها إلا وقد وهب كلا من الحاضرين منها شيئا صالحا ، وربما أرسل إلى من غاب ، سهمه .

قال : وكان يبغض الظلم وأهله ، ويعاقب من يفعله من أصحابه ، فمن ذلك أن نائبين كانا له بالجزيرة اختصما وترافعا

إليه ، فذكر أحدهما عن الآخر أنه قد كان خان السـلطان في مـاله ، وأخذ من أموال الرعية أيضا رشا على مالا يجـوز له فعله ، قـال : فاحضرهما بالموصل وأرسل إليه . وهما في ديوانه يقـول : قـد قلت عن فلان كذا وكذا ، فإن صح عليه أنه أخذ من أموال رعيتـي دينارا واحدا صلبته ، فإنني قد وسعت عليه وكثرت إقطاعه لئلا يمـد عينه إليهم ، وإن لم يصح عليه شيء عاقبتك على كذبـك ، فلم يصـح عليه قول شيء فأعاده إلى شغله ، وقال الاخر : لولا أن لك علي حق خدمة لكنت عاقبتك على كذبك ، فعزله .

وكان رضي الله عنه واسع الكرم ، كثير البذل للمال ، يكثر تعهـد أصحابه وذوابه ، بالصلات السنية والعطايا الجزيلة ، ففرق أمـوالا لاتحصى ولاتحد ، فمنها : ما كان جمع في الأيام الشسهيدية • والايام السيفية ، وما كان قد ادخره نصير الدين جقر ، وما تحصـل له هو من البلاد في أيامه .

أعطى فأكثر واستقل هباته
فاستحيت الانواء وهي هوامل
فاسم الغمام لديه وهو كنهور
آل(١١٤) وأسماء البحار جداول
لم تخل أرض من نداه ولا خلا
من شكر ما يولي لسان قائل

وكان رضي الله عنه يقول لمن ينهاه عن كثـرة الانفـاق وإخـراج الاموال : متى سـمعتم أن ملكا حبسـه القـاضي ، وإذا لم يظهـــر إحساني على من يخدمني فمن الذي يحسن إليهم ؟ وبالله أقسم إذا فكرت في الملوك أولاد الشهيد عماد الدين زنكي : سيف الدين ، ونور الدين ، وقطب الدين ، وما جمع الله سـبحانه فيهـم مـن مــكارم الاخلاق ، ومحاسن الافعال ، وحسن السيرة ، وعمـارة البـلاد ، والرفق بالرعية إلى غير ذلك من الاسباب التي يحتاج الملك إليهـا ، أظن أن القائل أرادهم بقوله : شعر

- ٦٥٣٩ -

هيذون ليذون أيسار بذو يسر
سواس مكرمة أبناء أيسار
لاينطقون على العوراء إن نطقوا
ولايمارون إن ماروا بإكبار
من يلق منهم يقل لاقيت سيدهم
مثل النجوم التي يسري بها السار

واذكر قول بعضهم ـ وقد سئل عن أولاد المهلب بن أبي صفرة ـ أيهم أفضل ، فقال : هم كالحلقة المفرغة . وقول فاطمة ابنة الحريث ـ وقد سئلت عن اولادها الكملة أيهم خير ـ فقالت : فلان ، بل فلان ، ثم قالت : ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم خير . وهكذا كانوا رضي الله عنهم .

ذكر وفاة المستنجد بالله أمير المؤمنين وخلافة ولده المستضيء بامر الله . رضي الله عنهم

توفي الامام المستنجد بالله أمير المؤمنين في تاسع شهر ربيع الآخر من سنة ست وستين وخمسمائة . واسمه يوسف بن المقتفي لأمر الله . وتمام نسبه عند وفاة المستظهر بالله رضي الله عنه .

وامه ام ولد اسمها طاووس رومية . ومولده مستهل ربيع الاخر سنة عشر وخمسمائة ، وكانت خلافته احدى عشرة سنة وستة أيام. وكان أسمرا ، تام القامة ، طويل اللحية .

وكان سبب موته انه مرض واشتد مرضه ، وكان قد خافه استاذ الدار عضد الدين ابو الفرج ابن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز ـ وهو من مماليك المقتفي لامر الله ـ وهو حينئذ أكبر أمير ببغداد ، وله من الاتباع مثل علاء الدين تتامش ويزدن وغيرهما ، وكان محسنا الى الاجناد ، فلما اشتد مرض المستنجد بالله اتفقا

ووضعا الطبيب على ان يصف له مايؤنيه ، فوصف له دخول الحمام ، فامتنع المستنجد بالله لضعفه ، ثم ادخله واغلق عليه الباب الى أن مات . هكذا سمعته من غير واحد ممن يعلم الحال .

وكان وزيره حينئذ شرف الدين أبا جعفر احمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدي - وهو الحاكم في الدولة - وبينه وبين أستاذ الدار عضد الدين وقطب الدين عداوة مستحكمة ، لان المستنجد بالله كان يأمره فيما يتعلق بهما بأشياء فيفعلها ، فكانا يظنان أنه هو الذي يسعى بهما ، فلما مرض المستنجد بالله وأرجف بموته ، ركب الوزير ومعه الأمراء والأجناد وغيرهم بالعدة الكاملة فلم يتحقق عنده خبر موته ، وأرسل إليه استاذ الدار يقول : إن أمير المؤمنين قد خف مابه من المرض واقبلت (عليه) العافية . فخاف الوزير أن يدخل إلى دار الخلافة بالجند فربما جرى عليه عتب وانكار ، فعاد إلى داره وتفرق الناس عنه . وكان استاذ الدار وقطب الدين قد استعدا للهرب لما ركب الوزير (خوفا منه) إن دخل الدار (ان ياخذهما (١١٥) ، فلما عاد أغلق استاذ الدار ابوابها وأظهر وفاة المستنجد ، واحضر هو وقطب الدين ابنه ، أبا محمد الحسن وبايعاه بالخلافة ولقباه المستضيء بأمر الله ، وشرطا عليه شروطا ، منها : أن يجعل عضد الدين وزيرا وابنه كمال الدين أستاذ الدار ، ويجعل قطب الدين أمير العسكر ، فأجابهم إلى ذلك . وعلم شرف الدين بن البلدي الحال ، فصفق يدا على يد ، وقرع سنه ندما على مافرط في عوده الى داره ، حيث لاينفعه الندم ، وأتاه من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضيء ، فمضى الى دار الخلافة ومعه زعيم الدين ابن جعفر ، وهو صاحب المخزن ، فلما دخلها صرف الى موضع من الدار وقتل وقطع قطعا والقي في دجلة ، رحمه الله تعالى . وأرسل عضد الدين وقطب الدين الى داره فحمل جميع ماله فيها من مال وغيره ، فرأيا في ذلك خطوط المستنجد بالله اليه يأمره فيها بالقبض عليهما ، وخط الوزير قد راجعه في ذلك وصرفه عنه ، فلما وقفا عليه ، علما براءته مما كانا يظنان فيه ، فندما حيث لم ينفعهما

ندمهما . واما زعيم الدين جعفر ، فان عماد الدين بن الوزير عضد الدين شفع فيه ، وهذا عماد الدين كان قد تصوف وترك الاعمال .

وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية ، عادلا فيهم ، كثير الرفق بهم ، وأطلق من المكوس كثيرا ولم يترك بالعراق مكسا . وكان شديدا على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس . بلغني أنه قبض على انسان كان يسعى بالناس ويكتب فيهم السعايات فأطال حبسه ، فحضر بعض أصحابه وشفع فيه ، وبذل عنه عشرة الاف دينار ، فقال : أنا أعطيك عشرة الاف دينار وتحضر لي انسانا آخر مثله أحبسه لاكف شره عن الناس ولم يطلقه .

فصل في ذكر ملك نور الدين الموصل وغيرها من البلاد الجزرية وتقرير الموصل على سيف الدين غازي

لما بلغ نور الدين وفاه أخيه قطب الدين رضي الله عنهما ، وملك ولده سيف الدين بعده . واستيلاء فخر الدين عبد المسيح واستبداده بالامور وحكمه على سيف الدين غازي ، اذف لذلك وكبر لديه وشق عليه ، وكان يبغض فخر الدين لما يبلغه من خشونته على الرعية والمبالغة في إقامة السياسة ، وكان رحمه الله لينا رفيقا عادلا ، فقال: أنا أولى بتدبير بني اخي وملكهم ، ثم سار من وقته فعبر الفرات عند قلعة جعبر مستهل محرم سنة ست وستين وقصد الرقة ، فامتنع النائب بها شيئا من الامتناع ، ثم سلمها على شيء اقترحه ، فاستولى نور الدين عليها وقرر امورها .
وسار الى الخابور فملكه جميعه .

ثم ملك نصيبين واقام بها يجمع العسكر ، فإنه كان قد سار جريدة ، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن

وديار بكر ، واجتمعت عليه العساكر فكان قد ترك اكثر عسكره بالشام لحفظ ثغوره واطرافه من الفرنج وغيرهم فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها وأقام عليها ونصب المجانيق ، وكان بها عسكر كثير من الموصل ، فكاتبه عامة الامراء الذين بالموصل يحثونه على السرعة إليهم ليسلموا البلد إليه وأشاروا بترك سنجار فلم يقبل منهم ، وأقام حتى ملك سنجار وسلمها إلى عماد الدين زنكي ابن اخيه قطب الدين . ثم سار إلى الموصل فاتى مدينة بلد ، وعبر دجلة في مخاضة عندها إلى الجانب الشرقي ، وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نيزوى ، ودجلة بينه وبين الموصل . ومن العجب أنه يوم نزوله سقط من سورالموصل بدنة كبيرة . وكان فخر الدين قد سير المولى عز الدين مسعود بن أتابك قطب الدين رضي الله عنهما إلى أتابك شمس الدين إيلدكز صاحب بلاد الجبل ، وأذربيجان ، وأران وغيرها يستنجده ، فأرسل أيلدكز رسولا إلى نور الدين ينهاه عن قصد الموصل ، ويقول : إن هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك إليها ، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته - وكان بسنجار - فسار إلى الموصل ، وقال للرسول : قل لصاحبك ، أنا أرفق ببني اخي مذك فلم تدخل نفسك بيننا ، وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب همذان ، فإذك قد ملكت نصف بلاد الاسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها ، وقد بليت أنا وحدي بأشجع الناس ، الفرنج ، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم ، فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه ، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الاسلام وإزالة الظلم عن المسلمين ، فعاد الرسول بهذا الجواب .

وحصر نور الدين الموصل فلم يكن بينهم قتال ، وكان هوى كل من بالموصل من جندي وعامي معه لحسن سيرته وعدله ، وكاتبه الامراء يعلمونه أنهم على الوثوب بفخر الدين وتسليم البلد إليه ، فلما علم فخر الدين ذلك ، راسله في الصلح والدخول في طاعته ، وإبقاء الموصل على سيف الدين ، ويطلب لنفسه الامان وإقطاعا يكون له ، فأجابه إلى ذلك ، وقال : لا سبيل إلى مقامك في الموصل بل

تكون عندي بالشام ، فإني لم آت لآخذ البلاد من أولادي ، إنما جئت لأخلص الناس منك ، وأتولى أنا تربية أولادي ، فاستقرت القاعدة على ذلك ، وسلمت الموصل إليه ، فدخلها ثالث عشر جمادى الاولى من سنة ست وستين وخمسمائة ، وسكن القلعة . وأقر سيف الدين غازي على الموصل ، وولى بقلعتها خادما له يقال له سعد الدين كمشتكين وجعله دزدارا فيها ، وقسم جميع ما خلفه أخوه أتابك قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة .

ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة الامام المستضيء بأمر الله فلبسها ، فلما دخل الموصل خلعها على سيف الدين .

وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد ، وأمر ببناء الجامع النوري فبني ، وأقيمت الصلاة فيه سنة ثمان وستين وخمسمائة .

وأقام بالموصل نحو عشرين يوما وسار إلى الشام ، فقيل له : إنك تحب الموصل والمقام بها وذراك أسرعت العود . فقال : قد تغير قلبي فيها ، فإن لم أفارقها ظلمت ، ويمنعني أيضا أنني (ههنا)(١١٦) لاأكون مرابطا للعدو وملازما للجهاد .

ثم أقطع نصيبين والخابور للعساكر ، وأقطع جزيرة ابن عمر لسيف الدين غازي ابن أخيه مع الموصل ، وعاد إلى الشام ومعه فخر الدين عبد المسيح ، فغير اسمه وسماه عبد الله ، وأقطعه إقطاعا كثيرا .

ذكر غزوة إلى بلد أنطاكية وطرابلس الشام

في سنة سبع وستين وخمسمائة ، خرجت مراكب من مصر إلى الشام ، فأخذ الفرنج الذين في لاذقية مركبين منها مملوءين من الامتعة والتجار وغدروا بالمسلمين ، وكان نور الدين قد هادنهم

فنكاثوا ، فلما سمع نور الدين الخبر إستعظمه ، وراسل الفرنج في اعادة ما أخذوه فغالطوه ، واحتجوا بأمور منها : أن المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسر فيهما ، وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء ، وكانوا كاذبين ، فلم يقبل مغالطتهم . وكان رضي الله عنه لايهمل أمرا من أمور رعيته فلم يردوا شيئا ، فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة وبث السرايا في بلادهم ، بعضهم نحو انطاكية وبعضهم نحو طرابلس ، وحصر هو حصن عرقة وخرب ربضه ، وأرسل طائفة من العساكر إلى حصني صافيتا وعريمة فأخذهما عنوة وكذلك غيرهما ، ونهب وخرب ، وغنم المسلمون الكثير وعادوا اليه وهو بعرقة ، فسار في العساكر جميعها الى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب .

وأما الذين ساروا الى أنطاكية ، فانهم فعلوا في ولايتها مثل ما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس ، فراسله الفرنج وبذلوا اعادة ماأخذوه من المركبين ، وتجدد معهم الهدنة فأجابهم الى ذلك فكانوا في ذلك كما يقال ، اليهودي لايعطي الجزية حتى يلطم ، وكذلك الفرنج ماأعادوا أموال التجار بالتي هي أحسن ، فلما نهبت بلادهم وخربت أعادوها .

نادرة غريبة في زماننا هذا

قد علم الناس قلة الأمانه [illegible] الأ[illegible] بل عدمها ، فلما أخذ الفرنج هذين المركبين ، كان لوالدي فيهما تجارة مع شخصين فلما أعادوا الى الناس أموالهم لم يصل الى كل انسان الا اليسير ، وكان يحمل المتاع الى نور الدين ويحضر التجار ، فكل من اسمه على ثوب أخذه ، وكان في الناس من يأخذ ماليس له ، فكان أحد هذين المضاربين فيه أمانة ـ وكان نصرانيا ـ فلم يأخذ الا ماعليه اسمه وعلامته ، فذهب من ماله ومالنا كثير بهذا السبب ، وكان الذي حصل له من مالنا أكثر من الذي له ، فلما عاد

إلينا سلم الذي له إلى والدي ، فامتنع من أخذه وقال خذ أنت الجميع فإنك أحوج اليه ، وأنا في غنى عنه ، فلم يفعل ، فلما كان بعض الأيام ، واذا قد جاء ذلك الغلام ومعه عدة من الأثواب السوسي وغيرها ، وقال : هذا من قماشنا قد حضر اليوم ، وسبب حضوره أن اذسانا فقاعيا (١١٧) من أهل تبريز كان معنا في المركب ، وقد أعادوا عليه ماله ، فرأى هذه الأثواب واسمي عليها ، فلم يسهل عليه مردها ، وسأل عني وقصدني وهي معه ، وحضر عندي الساعة وسلمها الي ، وقال : قد تركت طريقي لتبرأ ذمتي ، وأخذنا نحن ماعليه اسمنا بعد الجهد ، وطلب والدي الرجل ، وسأله ان يقيم عندنا ليسلم اليه مالا يتجر فيه فلم يفعل ، وعاد الى بلده وهذان الرجلان نادران في هذا الزمان .

ذكر انقراض الدولة العلوية بمصر واقامة الخطبة العباسية بها

في المحرم من سنة سبع وستين وخمسمائة ، قطعت خطبة العاضد لدين الله العلوي صاحب مصر ، وخطب فيها للامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين .

وكان السبب في ذلك أن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، لما ثبت قدمه في مصر ، وزال المخالفون له ، وضعف أمر الخليفة بها ، العاضد ، ولم يبق من العساكر المصرية أحد ، كتب اليه الملك العادل نور الدين محمود ، يأمره بقطع الخطبة العاضدية ، واقامة الخطبة العباسية ، فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب اهل مصر ، وامتناعهم من الاجابة الى ذلك لميلهم الى العلويين ، فلم يصغ نور الدين الى قوله ، وأرسل اليه يلزمه بذلك الزاما لا فسحة له فيه ، واتفق ان العاضد مرض - وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له - فاستشار امراءه كيف الابتداء بالخطبة العباسية ، فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ، ومنهم من خاف ذلك ، الا أنه لم يمكنه الا امتثال امر نور الدين ، وكان قد دخل الى مصر انسان عجمي يعرف بالأمير العالم - وقد رأيناه بالموصل كثيرا - فلما رأى ماهم فيه من الاحجام ، قال : أنا أبتدىء بها ، فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله فلم ينكر أحد فلما كان الجمعة الثانية ، أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد واقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ، ففعلوا ذلك ، ولم ينتطح فيها عنزان ، وكتب بذلك الى سائر الديار المصرية .

وكان العاضد قد اشتد مرضه ، فلم يعلمه أهله وأصحابه

بذلك ، وقالوا : ان سلم فهو يعلم ، وان توفي فلا ينبغي ان ننغص عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله ، فتوفي يوم عاشوراء ، ولم يعلم .

ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء ، واستولى على قصره وعلى جميع مافيه ، وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد ، بهاء الدين قراقوش - وهو خصي - لحفظه وجعله كأستاذ دار للعاضد ، فحفظ مافيه حتى تسلمه صلاح الدين ، ونقل اهل العاضد الى مكان منفرد ووكل بحفظهم وجعل اولاده وعمومته وأبناءهم في ايوان في القصر وجعل من يحفظهم ، وأخرج من كان بالقصر من العبيد والاماء ، فأعتق البعض ووهب البعض وباع البعض ، وأخلى القصر من أهله وسكانه ، فسبحان من لايزول ملكه ولايغيره ممر الأيام وتعاقب الدهور .

ولما اشتد مرض العاضد ارسل يستدعي صلاح الدين ، فظن أن ذلك خديعة فلم يمض اليه ، فلما توفي علم صدقه ، فندم على تخلفه عنه .

وكان ابتداء الدولة العلوية بافريقية والمغرب في ذي الحجة من سنة تسع وتسعين ومائتين ، وأول من ظهر منهم ، المهدي ابو

محمد عبد الله وهو (الذي) بنى المهدية وملك إفريقية جميعها ، وقام بالأمر بها بعده ، ابنه القائم بأمر الله ابو القاسم محمد ، ثم ابنه المنصور بالله أبو الطاهر اسماعيل بن محمد ، ثم ابنه المعز لدين الله أبو تميم معد - وهو الذي سير العساكر الى مصر مع مولاه جوهر ، ففتحها وملكها في شعبان من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وبنى القاهرة - وخرج المعز من إفريقية ، فأقام بمصر وأولاده بعده الى أن انقرضت دولتهم الآن ، فكانت مدة دولتهم مائتي سنة وستا وستين سنة ، وكان مقامهم بمصر مائتي سنة وثمان سنين ، وملك منهم أربعة عشر خليفة ، وهم : المهدي ،

والقائم بأمر الله ، والمنصور بالله ، والمعز لدين الله ثم ابنه العزيز بالله ، ثم الحاكم بأمر الله ، ثم الظاهر لاعزاز دين الله ، ثم المستنصر بالله ، ثم المستعلي بالله ، ثم الآمر بأحكام الله ، ثم الحافظ لدين الله ، ثم الظافر بالله ، ثم الفائز بنصر الله ، ثم العاضد لدين الله ، وهو آخرهم ، ولقد اتينا على ذكر ماأجملناه في المستقصى في التاريخ ، وانما نذكر ههنا ماتدعو الحاجة اليه .

ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره ، اختار منه ماأراد ووهب أهله وأمراءه وباع منه كثيرا وكان فيه من الجوهر والاعلاق النفيسة مالم يكن عند ملك من الملوك ، قد جمع على طول السنين وممر الدهور ، فمنه : القضيب الزمرد طوله نحو قبضة ونصف ، والجبل الياقوت وغيرهما ، ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد .

ولما خطب للمستضيء بأمر الله بمصر ، ارسل نور الدين اليه يعرفه ذلك ، فحل عنده أعظم محل ، وسير اليه الخلع الكاملة مع عماد الدين صندل المقتفوي اكراما له ، لأن عماد الدين كان كبيرا في المحل في الدولة العباسية ثبتها الله تعالى ، وكذلك ايضا خلعا لصلاح الدين ، الا أنها أقل من خلع نور الدين ، وسيرت الاعلام السود لتنصب على المنابر ، وكانت هذه أول هبة عباسية دخلت مصر بعد استيلاء العلويين عليها .

ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطنا

وفي سنة سبع وستين ايضا ، جرى ماأوجب نفرة نور الدين من صلاح الدين وكان الحادث أن نور الدين ارسل الى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها الى بلد الفرنج ، والنزول على الكرك ومحاصرته ، ليجمع هو ايضا عساكره ويسير اليه ، ويجتمعا هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم ، فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم ، وكتب الى نور الدين يعرفه ان رحيله لايتأخر ، وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز ، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو ، فلما أتاه الخبر بذلك ، رحل عن دمشق عازما على قصد الكرك فوصل اليه ، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين اليه ، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول اليه باختلال البلاد ، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد اليها ، فلم يقبل نور الدين عذره .

وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده ، وعزم على الدخول الى مصر واخراج صلاح الدين عنها ، فبلغ الخبر الى صلاح الدين ، فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء ، وأعلمهم مابلغه من عزم نور الدين قصده وأخذ مصر منه ، فاستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء ، فقام تقي الدين عمر - ابن أخي صلاح الدين - وقال : اذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد ، ووافقه غيره من أهله فشتمهم نجم الدين ايوب وأنكر ذلك واستعظمه - وكان ذا رأي ومكر وعقل - وقال لتقي الدين : اقعد وسبه ، وقال لصلاح الدين : أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين

خالك ، أتظن أن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا ؟ فقال : لا ، فقال : والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا الا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، فاذا كنا نحن هكذا ، كيف يكون غيرنا ، فكل من تراه من الأمراء والعساكر ، لو رأى نور الدين وحده ، لم يتجاسر على الثبات على سرجه ولا وسعه الا النزول وتقبيل الأرض بين يديه ، وهذه البلاد له وقد أقامك فيها ، وان أراد عزلك فأي حاجة له الى المجيء ، يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد .

وقال للجماعة كلهم : قوموا عنا ، فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا مايريد ، فتفرقوا على هذا ، وكتب اكثرهم الى نور الدين بالخبر ، ولما خلا ايوب بابنه صلاح الدين ، قال له : أنت جاهل قليل المعرفة ، تجمع هذا المجمع الكثير وتطلعهم على مافي نفسك ، فاذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه عن البلاد ، جعلك أهم الأمور اليه وأولاها بالقصد ، ولو قصدك لم تر معك أحدا من هذا العسكر ، وكانوا اسلموك اليه ، وأما الآن بعد هذا المجلس ، فسيكتبون اليه ويعرفونه قولي ، وتكتب أنت اليه وترسل في المعنى وتقول : اي حاجة الى قصدي ، يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي ، فهو اذا سمع هذا عدل عن قصدك ، واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج والله كل وقت في شأن ، ففعل صلاح الدين ماأشار به والده ، فلما رأى نور الدين الأمر هكذا ، عدل عن قصده ، وكان الأمر كما قال نجم الدين ، وتوفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله ، وهذا كان من أحسن الآراء وأجودها .

في ذكر اتخاذ نور الدين حمام الهوادي

وفي سنة سبع وستين ، أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام

الهوادي ، وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة الى أوكارها ، واتخذت في سائر بلاده .

وكان سبب ذلك انه اتسعت بلاده وطالت مملكته ، فكانت من حد النوبة الى باب همذان ، لايتخللها سوى بلاد الفرنج وكان الفرنج لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور ، فالى ان يصل الخبر ويسير اليهم يكونوا قد بلغوا بعض الغرض ، فحينئذ أمر بذلك ، وكتب به الى سائر البلاد وأجرى الجرايات لها ولمربيها ، فوجد بها راحة كثيرة ، كانت الأخبار تأتيه لوقتها ، فإنه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم ، فاذا رأوا أو سمعوا أمرا ، كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه ، فيصل الى المدينة التي هو منها في ساعته ، فتنقل الرقعة منه الى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين ، وهكذا الى أن تصل الأخبار اليه ، فانحفظت الثغور بذلك حتى ان طائفة من الافرنج نازلوا ثغرا له ، فأتاه الخبر ليومه، فكتب الى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة وكبس العدو ، ففعلوا ذلك ، فظفروا والفرنج آمنون ، لبعد نور الدين عنهم ، فرحمه الله ورضي عنه ، ماكان أحسن نظره للرعايا والبلاد .

ذكر قصد نور الدين الشهيد بلاد قلج أرسلان

في سنة ثمان وستين وخمسمائة ، سار نور الدين نحو ولاية الملك عز الدين قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان بن سليمان السلجقي ، وهي ملطية وسيواس وقونية ، وأقصرا ، عازما على حربه وأخذ بلاده منه .

وكان سبب ذلك ، أن ذا الذون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس وغيرهما من البلاد ، قصده قلج ارسلان وأخذ بلاده

وأخرجه عنها طريدا ، فسار الى نور الدين مستجيرا به وملتجئا الى ظله ، فأكرم نزله وأحسن اليه ، وحمل له مايليق أن يحمل إلى الملوك ، ووعده النصرة والسعي في رد ملكه إليه ، وكانت عادة نور الدين أنه لايقصد ولاية أحد من المسلمين الا ضرورة ، إما ليستعين بها على قتال الفرنج ، أو للخوف عليها منهم ، كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما ، فلما قصده ذو الذون ، راسل قلج ارسلان وشفع اليه في اعادة ماغلب عليه من بلاده فلم يجبه الى ذلك ، فسار نور الدين نحوه ، فابتدأ بحصني بهسنا ، ومرعش فملكهما وما بينهما من الحصون ، وسير طائفة من عسكره الى سيواس فملكوها وكان قلج ارسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده ، قد سار من أطرافها التي تلي الشام الى وسطها ، خوفا وفرقا ، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه ، فتوقف نور الدين عن قصده رجاء أن يتصلح الأمر بغير حرب ، فأتاه عن الافرنج ماأزعجه فأجابه الى الصلح وكان في جملة رسالة نور الدين اليه : انني اريد منك أمورا وقواعد ، ومهما تركت منها فلا اترك ثلاثة اشياء : أحدهما أنك تجدد اسلامك على يد رسولي حتى يحل لي اقرارك على بلاد الاسلام ، فانني لاأعتقدك مؤمنا - وكان قلج أرسلان يتهم باعتقاد مذهب الفلاسفة - والثاني ، اذ طلبت عسكرا الى الغزاة تسيره ، فانك قد ملكت طرفا كبيرا من بلاد الاسلام وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم .

فاما أن تنجدني بعسكر لأقاتل بهم الافرنج وأما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع في جهادهم والثالث ان تزوج ابنتك بسيف الدين غازي ولد أخي ، وذكر أمورا غيرها ، فلما سمع قلج أرسلان الرسالة قال : ماقصد نور الدين الا الشناعة علي بالزندقة ، وقد اجبته الى ماطلب أنا أجدد اسلامي على يد رسوله ، واستقر ذي الذون، فبقي العسكر بها الى أن مات نور الدين ، فرحل العسكر عنها وعاد قلج ارسلان وملكها .

- ٦٥٥٣ -

ذكر وفاة الملك العادل نور الدين بن عماد الدين زنكي

توفي الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر بدمشق ، يوم الأربعاء حادي عشر شوال من سنة تسع وستين وخمسمائة ، بعلة الخوانيق ، ودفن بقلعة دمشق ، ثم نقل عنها الى المدرسة التي أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين .

وكان قد شرع يتجهز للمسير الى مصر لأخذها من صلاح الدين ، فانه رأى منه فتورا في غزو الفرنج من ناحيته ، فأرسل الى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليتركها في الشام تمنعه من الفرنج ، ليسير هو بعساكره الى مصر وكان المانع لصلاح الدين من الغزو خوف نور الدين ، فانه كان يعتقد أن نور الدين متى زال الفرنج من طريقه أخذ البلاد منه ، فكان يحتمي : بهم عليه ولايؤثر استئصالهم ، وكان نور الدين لايرى إلا الجد في غزوهم بجهده وطاقته ، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو وعلم غرضه ، تجهز للمسير اليه ، فأتاه أمر الله الذي لايرد .

حكى لي طبيب دمشقي يعرف بالرحبي - وهو من حذاق الأطباء - قال : استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء ، فدخلنا عليه - وهو في بيت صغير بقلعة دمشق - وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته ، فكان يخلو فيه للتعبد في أكثر أوقاته فابتدأ به المرض فيه فلم ينتقل عنه ، فلما دخلنا اليه ورأينا مابه ، قلت له : كان ينبغي أن تنتقل عن هذا الموضع الى مكان فسيح فله اثر في هذا المرض ، وشرعنا في علاجه فلم ينجع فيه الدواء وعظم الداء ، ومات عن قريب رضي الله عنه .

وكان أسمر ، طويل القامة ، ليس له لحية الا في حنكه ، وكان واسع الجبهة ، حسن الصورة حلو العينين .

ولما توفي كان قد اتسع ملكه جدا ، فملك الموصل ، وديار الجزيرة ، وأطاعه أصحاب ديار بكر ، وملك الشام ، والديار المصرية ، وأمر بمسير جند من مصر الى اليمن فساروا - ومقدمهم شمس الدولة بن أيوب أخو صلاح الدين - فملكها ، وخطب له بالحرمين مكة والمدينة ، وكان مولده تاسع عشر شوال من سنة احدى عشرة وخمسمائة ، وطبق ذكره الأرض لحسن سيرته وعدله ، وأنا أذكر من حاله ماتعلم أن الله تعالى كمله ، وأنه لم يكن مثله الا الشاذ النادر .

في ذكر ولاية ابنه الصالح اسماعيل رضي الله عنه

لما توفي نور الدين ، جلس ابنه الملك الصالح اسماعيل في الملك ولم يبلغ الحلم ، وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق وأقام بها ، وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام وصلاح الدين بمصر ، وخطب له بها ، وضرب السكة باسمه فيها ، وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدم .

وحكى لي البقة قتلغ الكمالي ، قال : لما توفي نور الدين قال صاحبي كمال الدين (محمد الشهرزوري) للأمراء ومنهم شمس الدين بن المقدم وحسام الدين الحسين بن عيسى الجراحي وغيرهما من أكابر الأمراء : قد علمتم ان صلاح الدين من مماليك نور الدين ونوابه ، والمصلحة نشاوره فيما نفعله ، ولانخرجه من بيننا فيخرج عن طاعة الملك الصالح ويجعل ذلك حجة علينا ، وهو أقوى منا لأن له مثل مصر ، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصالح ، فلم يوافق اغراضهم هذا القول ، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجون ، قال : فلم يمض غير قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين الى الملك الصالح يهنئه بالملك ويعزيه بأبيه ، وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه ، ويعرفه ان الخطبة له والطاعة كما كانت لوالده ، فلما سار سيف الدين غازي ابن عمه قطب الدين

وملك الديار الجزرية ، ولم يرسل من مع الملك الصالح من الأمراء الى صلاح الدين ولاأعلموه الحال ، كتب الى الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده ليحضر في خدمته ويكفه ، وكتب الى كمال الدين والى الأمراء يقول : ان الملك العادل ، لو علم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق اليه مثل ثقتي بي ، لسلم اليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت ، لم يعهد الى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سواي ، وأراكم قد تفردتم بخدمة مولاي دوني ، وسوف أصل الى خدمته ، وأجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها ، وأقابل كلا منكم على سوء صنيعه واهمال أمر الملك الصالح ومصالحه حتى أخذت بلاده ، فقال لهم كمال الدين : هذا الذي كنت حذرتكم ، فأقام الملك بدمشق ومعه جماعة من الأمراء ولم يمكنوه من المسير الى حلب لئلا يغلبهم عليه شمس الدين علي بن الداية ، فانه كان أكبر الأمراء الذورية ، وانما تأخر عن خدمة الملك الصالح بعد وفاة نور الدين لمرض لحقه ، وكان هو وأخوته بحلب ، وأمرها اليهم ، وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده ، ولما عجز عن الحركة ، أرسل إلى الملك الصالح يدعوه الى حلب ليمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه ، وارسل الى كمال الدين والأمراء يقول لهم : إن سيف الدين قد ملك الى الفرات ، ولئن لم ترسلوا الملك الصالح الى حلب ، حتى يستجمع العساكر ويسترد ماأخذه منه ، والا عبر سيف الدين إلى حلب ، ولاتقوى على منعه ، فلم يرسلوه ولامكنوه من قصد حلب ، فكان من سيف الدين في ملك البلاد الجزرية مانذكره ان شاء الله تعالى .

في ذكره بعض سيرة الملك العادل نور الدين محمود رضي الله عنه

قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ، ملكا

أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولاأكثر تحريا للعدل والانصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها واحسان يوليه ، وانعام يسديه ، وقد تقدم من أحواله في مملكته مايستدل به على ماذكرنا ونحن نذكر ههنا مايعلم به محله في أمر دنياه وأخراه ، فلو كان في أمة لافتخرت به ، فكيف في بيت واحد .

فأما زهده وعبادته فانه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها ، لايأكل ولايلبس ولايتصرف فيما يخصه ، الا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لصالح المسلمين ، أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ مايحل له من ذلك ، فأخذ ماأفتوه بحله ولم يتعده الى غيره ألبتة ، ولم يلبس قط ماحرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة ، ومنع من شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ، ومن ادخالها الى بلد ما ، وكان يحد شاربها الحد الشرعي ، وكل الناس عنده فيه سواء .

حدثني صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين أنر زوجة نور الدين ووزيرها ، قال : كان نور الدين اذا جاء اليها يجلس في المكان المختص به ، وتقوم في خدمته لاتتقدم إليه إلا أن يأذن لها في أخذ ثيابه عنه ، ثم تعتزل عنه الى المكان الذي يختص بها ، وينفرد هو تارة يطالع رقاع اصحاب الأشغال ، أو مطالعة كتاب أتاه ويجيب عنه وكان يصلي فيطيل الصلاة ، وله أوراد في النهار فاذا جاء الليل وصلى العشاء نام ، ثم يستيقظ نصف الليل ويقوم الى الوضوء والصلاة والدعاء الى بكرة ، ثم يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة قال : وإنها قلت عليها النفقة ، ولم يكفها ماكان قد قرره لها فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها فلما قلت له تنكر واحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها ، أما يكفيها مالها ؟! والله لأخوض نار جهنم في هواها ، ان كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن ، إنما هي أموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم ، ومعدة لفتق ان كان من عدو

الاسلام ، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاث دكاكين ملكا قد وهبتها إياها فلتأخذها، قال: وكان يحصل منها قدر قليل .

وكان رحمه الله لايفعل فعلا الا بنية حسنة ، كان رجل بالجزيرة من الصالحين كثير العبادة والورع ، شديد الانقطاع عن الناس ، وكان نور الدين يكاتبه ويرجع الى قوله ويعتقد فيه حسنا ، فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالكرة ، فكتب اليه يقول له : ماكنت أظن أذك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية ، فكتب اليه نور الدين بخط يده يقول له : والله ماحملني على اللعب بالكرة ، اللهو والبطر ، وانما نحن في ثغر والعدو قريب منا ، وبينما نحن جلوس اذ يقع الصوت فنركب في الطلب ، ولايمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا ، شتاء وصيفا ، اذ لابد من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لاقدرة لها على ادمان السير في الطلب ، ولامعرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة ، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب ، فيذهب جمامها وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب ، فهذا والله هو الذي يبعثني على اللعب بالكرة .

فانظر الى هذا الملك المعدوم النظير ، الذي يقل في اصحاب الزوايا المنقطعين الى العبادة مثله ، فإن من يجيء إلى اللعب ويفعله بنية صالحة ، حتى يصير من أعظم العبادات وأكثر القربات ، يقل في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لايفعل شيئا الا بنية صالحة ، وهي افعال العلماء الصالحين العاملين .

وحكي لي عنه ، انه حمل اليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده ، فوصفت له فلم يلتفت اليها ، وبينما هم معه في حديثها ، واذا قد جاءه رجل صوفي فأمر بها له ، فقيل : انها لاتصلح لهذا الرجل ، ولو أعطي غيرها لكان انفع

له ، فقال : اعطوها له ، فاني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة ، فسلمت اليه ، فسار بها الى بغداد فباعها بستمائة دينار اميري أو سبعمائة دينار ، أنا أشك أنها كانت تساوي اكثر .

وحكى لنا الأمير بهاء الدين علي بن الشكري رحمه الله تعالى - وكان خصيصا لخدمته قد صحبه من الصبا وأنس به وله معه انبساط - قال : كنت معه يوما في الميدان بالرها نسير والشمس في ظهورنا ، فكلما سرنا تقدمنا ظلنا ، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا ، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه ، فقال لي : اتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت ورائي ؟ قلت : لا ، قال : قد شبهت مانحن فيه بالدنيا ، تهرب ممن طلبها وتطلب من هرب منها ، وكان رحمه الله يصلي كثيرا من الليل ، ويدعو ويستغفر ويقرأ ، ولايزال كذلك الى أن يركب .

جمع الشجاعة والخشوع لربه
ماأحسن المحراب في المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب الأمام ابي حنيفة ، وليس عنده تعصب بل الانصاف سجيته في كل شيء، وسمع الحديث وأسمعه طلبا للأجر ، وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل ، والانصاف ، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك ، فانهم كانوا قبله كالجاهلية ، همة أحدهم بطنه وفرجه ، لايعرف معروفا ولاينكر منكرا . حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه ، وألزم بذلك اتباعه وذويه ، فاقتدى به غيره منهم ، واستحيوا أن يظهر عنهم ماكانوا يفعلونه ، ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، فإن قال قائل : كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجبى إليه الأموال الكثيرة ؟ فليذكرني الله سليمان بن داود عليه السلام مع ملكه ، وهو سيد الزاهدين في زمانه ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضرموت ، واليمن

والحجاز وجزيرة العرب جميعها من حدود الشام الى العراق ، وهو على الحقيقة سيد الزاهدين ، وانما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لاخلو اليد عنها .

وأما عدله

فانه كان من أحسن الملوك سيرة ، وأعد لهم حكما ، فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة لامكسا ولاعشرا ، بل اطلقها جميعها في بلاد الشام ، والجزيرة جميعا والموصل وأعمالها وديار مصر وغيرها مما حكم عليه ، وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون دينارا ، فأطلقها ، وهذا لم تتسع له نفس غيره ، وكان يجري العدل ، وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان ، القوي والضعيف عنده في الحق سواء ، فكان يسمع شكوى المظلوم ، ويتولى كشف حاله بنفسه ، ولايكل ذلك الى حاجب ولاأمير فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها .

ومن عدله

أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ، ويقول : نحن شحن لها نمضي أوامرها فمن اتباعه أحكامها أنه كان يوما يلعب بالكورة بدمشق ، فرأى انسانا يحدث آخر ويومىء بيده اليه ، فأرسل اليه يسأله عن حاله ، فقال : لي مع الملك العادل خصومة وهذا غلام القاضي ليحضره الى مجلس الحكم يحاكمني على الملك الفلاني ، فعاد اليه ولم يتجاسر يعرفه ماقال ذلك الرجل وغالطه ، فلم يقبل منه غير الحق ، فذكر له قوله ، فألقى الجوكان من يده ، وخرج من الميدان وسار الى القاضي يقول : إنني قد جئت محاكما ، فأسلك معي ماتسلكه مع

غيري ، فلما حضر ساوى بينه وبين خصمه وحاكمه ، فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين ، فقال نورالدين حينئذ للقاضي ولمن حضر : هل ثبت له عندي حق ؟ فقالوا : لا فقال : اشهدوا انني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه ، وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي وانما حضرت معه لئلا يظن أنني ظالمته ، فحيث ظهر ان الحق لي وهبته وهذا غاية العدل والانصاف بل غاية الاحسان وهي درجة وراء العدل ، فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة الى الحق ، الواقفة معه .

قال صاحب التاريخ : ومن عدله قدس روحه ونور ضريحه من نور فسيحه ، أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي جرت بها عادة الملوك في هذه الأعصار على الظنة والتهمة ، بل يطلب الشهود على المتهم ، فان قامت عليه البينة الشرعية، عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد ، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر مايوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظنة وأمنت بلاده مع سعتها ، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر .

وحكي لي من أثق به ، أنه دخل يوما الى خزانة المال ، فرأى فيها مالا أنكره ، فسأل عنه فقيل :ان القاضي كمال الدين ارسله وهو من جهة كذا ، فقال ان هذا المال ليس لنا ولالبيت المال في هذه الجهة شيء ، وأمر بإعادته إلى كمال الدين ليرده الى صاحبه ، فأرسله متولي الخزانة الى كمال الدين فرده إلى الخزانة مرة أخرى وقال : اذا سأل الملك العادل عنه ، فقولوا له عني ، انه له ، فدخل نور الدين الى الخزانة مرة أخرى فرآه ، فأنكر على النواب ، وقال : ألم أقل لكم يعاد هذا المال على اصحابه ، فذكروا له قول كمال الدين فرده اليه ، وقال للرسول : قل لكمال الدين : أنت تقدر على حمل هذا (المال) وأما أنا فرقبتي دقيقة لاأطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى ، يعاد قولا واحدا فأعاده .

وكان اذا حضر الحرب ، أخذ قوسين وتركشين (١١٩) وباشر القتال بنفسه ، وكان يقول : طالما تعرضت للشهادة فلم أرزقها ، سمعه يوما الامام قطب الدين النيسابوري - الفقيه الشافعي - وهو يقول ذلك ، فقال له : بالله لاتخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين فإذك عمادهم ، وإن أصبت والعياذ بالله في معركة ، لايبقى من المسلمين أحد إلا وأخذه السيف ، وأخذت البلاد ، فقال له : ياقطب الدين ، ومن محمود حتى يقال له هذا ، قبلي من حفظ البلاد والاسلام ، ذلك الله الذي لا إله إلا هو .

وكان رحمه الله يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج خذلهم الله تعالى ، وأكثر ماملكه من بلادهم به ، ومن جيد الرأي ماسلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن صاحب الدروب ، فانه مازال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفرا وحضرا ، وكان يقاتل به الفرنج ، وكان يقول : إنما حملني على استمالته ، أن بلاده حصينة وعرة المسالك ، وقلاعه منيعة ، وليس لنا إليها طريق ، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الاسلام ، فاذا طلب انحجر فيها فلا يقدر عليه ، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئا من الاقطاع على سبيل التألف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا ، وساعدنا على الفرنج وحين توفي نور الدين وسلك من بعد غير هذا الطريق ، ملك المتولي للأرمن بعد مليح كثيرا من بلاد المسلمين وحصونهم ، وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لايمكن رقعه .

ومن أحسن الآراء ماكان يفعله مع أجناده ، فإنه كان إذا توفي أحدهم وخلف ولدا ، أقر الاقطاع عليه ، فان كان الولد كبيرا ، استبد بنفسه ، وإن كان صغيرا رتب معه رجلا عاقلا يثق إليه فيتولى أمره إلى أن يكبر ، فكان الأجناد يقولون ، هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عنها ، وكان ذلك سببا عظيما ، من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب ، وكان

أيضا يثبت أسماء أجناد كل أمير في ديوانه ، وسلاحهم ودوابهم ، خوفا من أن حرص بعض الأمراء وشحه يحمله على أن يقتصر على بعض ماهو مقرر عليه من العدد ، ويقول : نحن كل وقت بصدد النفير ، فاذا لم يكن اجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعدد ، دخل الوهن على الاسلام ، ولقد صدق رضي الله عنه فيما قال ، وأصاب فيما فعل فلقد رأينا ماخافه عيانا .

وأما مافعله من المصالح

الذي فعله من المصالح في بلاد الاسلام مما يعود الى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم ، ونحن نذكر طرفا منه ، فمن ذلك أنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها ، فمنها : حلب ، حماة ، وحمص ، ودمشق ،وبارين ، وشيزر ، ومنبج وغيرها من القلاع والحصون وحصنها ، وأحكم بناءها ، وأخرج عليها من الأموال مالا تسمح به النفوس .

وبنى أيضا المدارس بحلب ، وحماة ، ودمشق ، وغيرها للشافعية والحنفية .

وبنى الجوامع في جميع البلاد ، فجامعه في الموصل إليه النهاية في الحسن والاتقان ، ومن أحسن ماعمل فيه ، أنه فوض أمر عمارته والخرج عليه الى الشيخ عمر الملا رحمه الله - وهو رجل من الصالحين - فقيل له : إن هذا لايصلح لمثل هذا العمل ، فقال : اذا وليت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكتاب أعلم انه يظلم في بعض الأوقات ، ولايفي الجامع بظلم رجل مسلم ، وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لايظلم ، فإذا ظلم كان الأثم عليه لاعلي ، وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم ، وبنى أيضا بمدينة حماة جامعا على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها ، وجدد في غيرها من عمارة الجوامع ماكان قد تهدم إما بزلزلة أو بغيرها .

ومن عدله ايضا بعد موته ـ وهـو أعجـب مـايحكى عنه ـ أن انسانا كان بدمشق غريبا قد استوطنها وأقام بها لما رأى مـن عدل نور الدين ، فلما توفي وملكها صـلاح الدين ، كان اجناده وأمـراؤه يفعلون مايريدون ولايمنعهم ، فتعدى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه، فلم ينصفه صلاح الدين ، فنزل من القلعة وهـو يسـتغيث ويبكي وقد شق ثوبه ، وهو يقول : ياذور الدين ، لو رأيتنا ومانحن فيه من الظلم لرحمتنا ، اين عدلك عنا ، وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق مالايحصى ، وكلهم يبكي ويصـيح ، فـوصل الخبـر الى صـلاح الدين ، وقيل له : احفـظ البلد والرعية والا خـــرج عن يدك ، فأرسل الى ذلك الرجل ـ وهـو عند تـربة نور الدين يبـكي والناس معه ـ فطيب قلبه ، ووهبه (شيئا) وانصفة ، فبكى اشد من الأول ، فقال له صلاح الدين : لم تبـكي ؟ فقـال : أبـكي على سلطان عدل فينا بعد موته ، فقـال صـــلاح الدين وهـــذا هـــو الحق ، وكل مايرى فينا من عدل فمنه تعلمناه .

فصل في ذكر بنائه دار العدل

رحمه الله وأسكنه فسيح جناته

كان الملك العـادل نور الدين رضي الله عنه ، أول مـــن بنى دارا لكشف المظالم وسماها دار العدل ، وكان سبب بنائها ، أنه لما طال مقامه بدمشق وأقام بها أمراؤه وفيهم اسد الدين شيركوه ـ وهـو أكبر امير معه ، وقد عظم شأنه وعلا مكانه حتى صار كأنه شريك في الملك ـ واقتنوا الاملاك فأكثروا ،وتعدى كل واحد منهـم على مـن يجاوره في قرية أو غيرهـــا ، فـــكثرت الشـــكوى إلى كمـــال الدين ، فأنصف بعضهم من بعض ، ولم يقدم على الانصـاف مـن أسد الدين شيركوه ، فـأنهى الحـال الى نور الدين ، فـأمر حينئذ ببناء دار العدل ، فلمـا سـمع أسـد الدين ذلك ، أحضر نوابـه جميعهم ، وقال لهم : اعلموا أن نور الدين ماأمر ببناء هذه الدار إلا

بسببي وحدي ، وإلا فمن هـو الذي يمتنع على كمـال الدين ، والله لئن حضرت الى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه ، فامضوا الى كل من بينكم وبينه منازعة فافصلوا الحال معه ، وأرضـوه بـأي شيء أمكن ، ولو أتى ذلك على جميع مابيدي ، فقالوا له : ان الناس اذا علموا هذا اشتطوا في الطلب فقال : خروج املاكي عن يدي اسـهل عندي مـن أن يراني نور الدين بعين أني ظـالم ، أو يسـاوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة .

فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ماأمرهم ، وأرضوا خصـماءهم وأشهدوا عليهم ، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحـكومات ، وكان يجلس في الأسـبوع يومين وعنده القـاضي والفقهاء ، فبقي كذلك مدة ، فلم يحضر عنده أحد يشكو مـن اسـد الدين ، فقال لكمال الدين : ماأرى أحدا يشكو من شيركوه ، فعرفه الحال ، فسجد فشكر الله تعالى وقـال : الحمـد لله إذ اصـحابنا ينصفون من انفسهم قبل حضورهم عندنا ، فانظر الى هذه المعـدلة ماأحسنها ، والى هذه الهيبة مـاأعظمها ، وإلى هـذه السـياسة ماأشدها ، هذا مع أنه كان لايريق دما ، ولايبالغ في عقوبه ، وانمـا كان يفعل هذا صدقة في عدله وحسن نيته .

وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهـاية إليه فيهمـا ، فإنه كان أصبر الناس في الحرب وأحسـنهم مـكيدة ورأيا ، وأجـودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم ، وبه كان يضرب المثل في ذلك سمعت جمعا كثيرا من الناس لاأحصيهم يقولون انهـم لم يروا على ظهـر الفرس أحسن منه ، كأنه خلق لايتحرك ولايتزلزل .

وكان من أحسن الناس لعبـا بـالكرة وأقـدرهم عليهـا ، لم ير جوكانه يعلو على رأسه ، وكان ربما ضرب الكرة فتعلوا ، فيجـري الفـرس ويتناولهـا بيده مـن الهواء ويرميها إلى آخـر الميدان ، وكانت يده لاتـرى والجـوكان فيها ، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب .

وبنى البيمارستانات في البلاد ، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق ، فإنه عظيم كثير الخرج ، بلغني أنه لم يجعله وقفا على الفقراء حسب ، بل على كافة المسلمين من غني وفقير ، ولقد جرى لي مع طبيبه ما أذكره ، وذلك أنني قدمت من زيارة بيت المقدس - بعد أن فتحه المسلمون - مريضا ، فسألت عن طبيب فدلوني على مغربي فأتيته ووصفت له مرضي ، فوصف لي وصفة لم يرضني قوله ، فعاودته القول فتركني ومضى ، فأذفت نفسي وضاقت الدنيا في عيني ، وعزمت على أن لا أعالج نفسي الا بما تنتهي إليه معرفتي ، واشتد مرضي لما نالني من الغيظ ، فلما كان الغد ، قوي عزمي على قصد طبيب يعالجني ، فركبت ودخلت البلد وسألت عن طبيب ، فدلت على طبيب هذا البيمارستان ، فأتيته فيه وهو يكتب نسخا للمرضى الذين به ، فلما رآني قد قاربته ، أقبل على بوجه منبسط وسايلني عن حالي فوصفته له ، فكتب لي نسخة ، وقال لي : يحمل غلامك ما في هذه النسخة ، فقلت : لاحاجة بي إلى ذلك ، فقد أغناني الله عن مزاحمة الفقراء ، فقال : يامولاي ، لا أشك أنك في غنى عن هذا ، ولكن لا يأنف أحد من صدقة نور الدين وانعامه ، والله إن أولاد السلطان صلاح الدين وأهله ليأخذون من الأدوية من هذا البيمارستان ، فقلت : أنا لا أرى ذلك ، فقال : انه وقف على كافة المسلمين غنيهم وفقيرهم ، فوجدت في نفسي بكلامه انبساط ، فحكيت له حكاية ذلك الطبيب ، فقال : يامولاي ، مغربي وقد أقام بالشام لا يكون إلا هكذا ، وأما أنا فما تراه في من أدب الناس فمن عندكم وبلادكم ، فإني سافرت إلى الموصل والعراق ، فشكرته وعدت عنه ، رضي الله عنه .

وبنى أيضا الخانات في الطرق ، فأمن الناس وحفظت أموالهم ، وباتوا في الشتاء في كن من البرد والمطر .

وبنى أيضا الأبراج على الطرق ، وبين بلاد المسلمين

والفرنج ، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي ، فاذا رأوا من العدو أحدا أرسلوا الطيور ، فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لأنفسهم ، فلم يبلغ العدو منهم غرضا ، وكان هذا من ألطف الفكر وأكثرها نفعا ، رحمة الله تعالى .

وبنى أيضا الربط والخانقاهات في جميع البلاد الصوفية ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة ، وأدر عليهم الادرارات الصالحة ، وكان يحضر عنده مشايخهم ويقربهم ويدنيهم ويبسطهم ويتواضع لهم ، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه ، ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته ويقبل عليه بحديثه ، وكذا أيضا كان يفعل بالعلماء ، من التعظيم والتوقير والاحترام ويجمعهم عنده للبحث والنظر ، فقصدوه من البلاد الشاسعة ، من خراسان وغيرها ، وبالجملة فكان أهل الدين عنده في أعلى المنازل وأعظمها ، فكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك ، وكانوا يقعون فيهم عنده فينهاهم ، واذا نقلوا عن انسان عيبا يقول : ومن المعصوم ، وانما الكامل من تعد ذنوبه .

بلغني ان بعض الأكابر من الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي ـ وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ في اكرامه والاحسان اليه ـ فحسده ذلك الأمير فنال منه يوما عند نور الدين ، فقال له : ياهذا إن صح ماتقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها ، وهي العلم والدين ، وأما أنت وأصحابك ، ففيكم أضعاف ماذكرت ، وليست لكم حسنة تغفرها ، ولو عقلت لشغلك عيبك من غيرك ، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا احتمل سيئة هذا ـ إن صحت ـ مع وجود حسنته ، على أنني والله لاأصدقك فيما تقول : وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأونيذك ، فكف عنه ، هذا والله هو الاحسان والفعل الذي يكتب على العيون بماء الذهب .

وبنى بدمشق أيضا دارا الحديث ، ووقف عليها وعلى من بها

من المشتغلين بعلم الحديث وقوفا كثيرة ، وهـو أول مـن بنى دارا للحديث فيما علمناه .

وبنى أيضا في كثير من بلاده مكاتب للأيتـام ، وأجـرى عليهـم وعلى معلميهم الجـرايات الوافـرة ، وبنى أيضـا مسـاجد كثيرة ، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن ، ووقف على الأيتام الذين يقرؤون بها القرآن ، وهذا فعل لم يسبق إليه .

بلغني من عارف بأعمال الشـام ، أن وقـوف نور الدين في وقتنا هذا ـ وهو سنة ثمـان وسـتمائة ـ كل شـهر تسـعة آلاف دينار صورية ، ليس فيها ملك غير صحيح شرعي ظـاهرا وبـاطنا ، فإنه وقف ماانتقل إليه وورث ثمنه أو من ماغلب عليه مـن بـلاد الفـرنج وصار سهمه .

فصل في ذكر وقاره وهيبته
قدس الله روحه ونور ضريحه

فإليه النهاية فيهما ، فلقد كان كما قيل : شديد في غير عنف رقيق في غير ضعف ، واجتمع له مالم يجتمع لغيره ، فإنه ضبط نامـوس الملك حتى مع أجناده وأصحابه إلى غاية لامزيد عليها ، كان يلزمهم بوظائف الخدمة ، الصغير منهـم والكبير ، ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس ، الا نجم الدين أيوب والد صـلاح الدين يوسف ، وأما من عداه كأسد الدين شـيركوه ، ومجـد الدين بـن الداية وغيرهما ، فانهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياما إلى أن يأمرهم بالقعود ، وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم ، إذا دخـل عليه الفقيه أو الصـوفي أو الفقير يقـــوم له ويمشي إلى بين يديه ، ويجلسه إلى جانبه ، ويقبل عليه بحـديثه كأنه أقـرب الناس اليه ، وكان إذا اعطى أحدهم شيئا ، يقـول : إن هؤلاء لهـم بيت المال حق ، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا .

وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مجلس حلم وحياء لاتؤبن فيه الحرم ، وهكذا كان مجلسه ، لايذكر فيه إلا العلم والدين ، وأحوال الصالحين ، والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو ، ولايتعدى هذا .

بلغني ان الحافظ أبا القاسم ابن عساكر الدمشقي رضي الله عنه ، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق رأى فيه من اللغط وسوء أدب الجلوس فيه مالاحد عليه ، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين ، فلم يتمكن من القول لكثرة اختلاف المتحدثين وقلة استماعهم ، فقام وبقي مدة لايحضر المجلس الصلاحي ، وتكرر من صلاح الدين الطلب له فحضر ، فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه ،فقال: نزهت نفسي عن مجلسك ، فإني رأيته كبعض مجالس السوقة ، لايستمع به إلى قائل ولايرد جواب متكلم ، وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل : كأنما على رؤوسنا الطير ، تعلونا الهيبة والوقار ، وإذا تكلم أنصتنا ، وإذا تكلمنا استمع لنا ، فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه أنهم لايكون منهم ماجرت به عادتهم إذا حضر الحافظ فهكذا كانت أحواله جميعها ـ رحمه الله تعالى ـ مضبوطة محفوظة .

وأما حفظه أصول الديانات

فإنه رحمه الله تعالى كان مراعيا لها ، لايهملها ولايمكن أحد من الناس من اظهار مايخالف الحق ، ومتى أقدم مقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته ، وكان يبالغ في ذلك ، ويقول : نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق ، والأذى الحاصل منهما قريب ، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ماينا قضه ، وهو الأصل .

حكي لي أن انسانا كان بدمشق يعرف بيوسف بن آدم ، كان

يظهر الزهد والنسك ـ وقد كثر أتباعه ـ أظهر شيئا من التشبيه ، فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حمارا وأمر بصفعه وطيف به في البلد جميعه ، ونودي عليه : هذا جزاء من أظهر في الدين البدع ، ثم نفاه من دمشق فسار عنها وقصد حران ، وأقام بها الى أن مات ويسوق الله القصار الأعمار الى البلاد الوخمة .

فصل من كلام عماد الدين الكاتب فيه رحمه الله تعالى

قال العماد محمد بن حامد الكاتب ـ وقد ذكر نور الدين في بعض مصنفاته ـ فقال : كان ملك بلاد الشام ومالكها ، والذي بيده ممالكها ، الملك العادل نور الدين أعف الملوك وأتقاهم ،وأثقبهم رأيا وأذكاهم وأعدلهم وأعبدهم وأزهدهم وأجدهم ، وأطهرهم وأظهرهم ، وأقواهم وأقدرهم ، وأصلحهم عملا ، وانجحهم أملا ، وأرجحهم رأيا وأوضحهم آيا ، وأصدقهم قولا ، وأقصدهم طولا ، وكان عصره فاضلا ، ونصره واصلا ، وحكمه عادلا ، وفضله شاملا ، وزمانه طيبا ، واحسانه صيبا ، والقلوب بمهابته ومحبته ممتلية ، والنفوس بعاطفته وعارفته متملية ، وأموره مقتبلة ، وأوامره ممتثله ، وجده منزه عن الهزل ، وذوابه في أمن من العزل ، ودولته مأمولة مأمونه ، وروضته مصوبة مصونة ، والرياسة كاملة ، والسياسة شاملة ، والزيادة زائدة ، والسعادة مساعدة ، والعيشة ناضرة ، والشيعة ناصرة ، والانصاف صاف ، والاسعاف عاف ، وأزر الدين قوي ، وظمأ الاسلام روي ، وزند النجح وري ، والشرع متبوع ، والحكم مسموع، والعدل مولى والظلم معزول ، والتوحيد منصور والشرك مخذول والتقي شروق ،ومالفسوق سوق ، وهو الذي أعاد رونق الاسلام إلى بلاد الشام ، وقد غلب الكفر ، وبلغ الضر ، فاستفتح مغالقها ، واستخلص معاقلها ، واستخلص

عقائلها ، وأشاع بها شعار الشرع في جميع الحل والعقد ، والابرام والنقض ، والبسط والقبض ، والوضع والرفع ، وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الشام قطائع فقطعها ، وعفى رسومها ومنعها ، ونصره الله عليهم مرارا حتى أسر ملوكهم وبدد سلوكهم ، وصان الثغور منهم ، وحماها عنهم ، وأحيا معالم العلوم الدوارس ، وبنى للأئمة المدارس ، وأنشأ الخانقاهات الصوفية وكبرها ، في كل بلد وكثر وقفها ووفر معروفها ، وأدنى للوافدين من جنان جنابه قطوفها ، وأجد الأسوار والخنادق ، وأنمى المرافق ، وحمى الحقائق ، وأمر في الطرقات ببناء الربط والخانات ، فضاقت ضيوف الفضايل وفاضت فيوض الفواضل ، وهو الذي فتح مصر وأعمالها ، وأنشأ دولتها ورجالها (١٢٠) .

ولو ذكرت ماقال العلماء فيه لكان مجلدات ، ولكن الاختصار اليق بما نحن فيه والسلام .

في ذكر استيلاء أتابك سيف الدين غازي على البلاد الجزرية بعد وفاة نور الدين

كان نور الدين قبل أن يمرض ، قد أرسل الى البلاد الشرقية كالموصل وغيرها يستدعي العساكر منها ، فسار سيف الدين غازي ابن أتابك قطب الدين صاحب الموصل في عساكره ، فلما كان ببعض الطريق ، أتاه الخبر بموت عمه الملك العادل نور الدين ، فعاد إلى نصيبين فملكها ، وأرسل الشحن إلى بلد الخابور فاستولوا عليه ، وسار هو إلى حران فحصرها عدة أيام ، وكان بها مملوك نور الدين في قلعتها اسمه قايماز الحراني ، فامتنع فيها ، ثم أطاع على أن تكون حران له ، ونزل إلى خدمة سيف الدين فقبض عليه وأخذ حران منه ، وسار الى الرها فحصرها وملكها ، وأرسل الى

مدينة الرقة فملكها ، وكذلك سروج ، واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعة جعبر .

وكان بمدينة حلب وقلعتها الأمير شمس الدين علي بن الداية - وهو من أكبر الأمراء النورية - وهو مريض فلم يمكنه منع سيف الدين عن البلاد الجزرية ، فأرسل إلى دمشق يطلب أن يرسل إليه الملك الصالح في العساكر التي معه بها ، ليمنع سيف الدين عن البلاد ، فلم يفعل شمس الدين بن المقدم - وكان هو المربي للملك الصالح والقائم بأمره - وخاف أن يرسله فيأخذه أولاد الداية ويسير معه الى دمشق ويزيلوا ابن المقدم عما يتولاه .

فمكن حينئذ سيف الدين من ملكها ، فلما استقام له ملك البلاد الجزرية ، قال له فخر الدين عبد المسيح - وكان قد فارق سيواس بعد وفاة نور الدين ، وقصد سيف الدين ظنا منه أن سيف الدين يرعى له خدمته ، وقيامه في أخذ الملك له من والده قطب الدين على ماذكرناه أولا ، فلم يجن ثمرة ماغرس ، وكان عنده كبعض الأمراء - فقال له : ليس بالشام من يمنعك ، فاعبر الفرات وأملك البلاد . فأشار أمير آخر معه - وهو أكبر أمرائه - يقال له عز الدين محمود المعروف بزلفدار : قد ملكت أكثر من والدك ، والمصلحة أن تعود ، فرجع إلى قوله وعاد إلى الموصل (ليقضي الله أمرا كان مفعولا)(١٢١) ،(وكان ذلك في الكتاب مسطورا) (١٢٢) .

وأما أحوال من بالشام ، فان نور الدين كان قد جعل بقلعة الموصل لما ملكها دزدارا لها وهو سعد الدين كمشتكين - بعض خدمه الخصيان - فلما سار سيف الدين الى الشام كان في مقدمته على مرحلة ، فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب ، وأرسل سيف الدين في اثره فلم يدرك ، فنهب بركه ودوابه وسار الى حلب ، فتمسك بخدمة شمس الدين بن الداية وأخوته ، واستقر بينهم وبينه أن يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصالح ، فسار

اليها ، فأخرج اليه ابن المقدم عسكرا فنهبوه فعاد منهزما الى حلب ، فأخلف عليه شمس الدين بن الداية ماأخذ وجهزه وسيره الى دمشق - وعلى نفسها تجني براقش - فلما وصلها سعد الدين دخلها ، واجتمع بالملك الصالح والأمراء وأعلمهم مافي مسير الملك الصالح الى حلب من المصالح ، فأجابوا الى تسييره فسار اليها ، فلما وصلها وصعد الى قلعتها ، قبض سعد الدين على شمس الدين بن الداية وأخوته ، وعلى ابن الخشاب رئيس حلب والذي يتبعه من أحداثها ولولا مرض شمس الدين لم يتمكن منه ، ولاجرى من ذلك الخلف والوهن شيء (وكان أمر الله قدرا مقدورا) (١٢٣)

واستبد سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق ، وكاتبوا سيف الدين ليسلموا إليه دمشق فلم يفعل ، وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها ، ويقصده ابن عمه من وراء ظهره ولايمكنه الثبات ، فراسل الملك الصالح وصالحه على اقرار ماأخذه بيده ، وبقي الملك الصالح بحلب وسعد الدين بين يديه يدبر أمره ، وتمكن منه تمكنا عظيما يكاد يقارب الحجر عليه .

في ذكر وصول صلاح الدين يوسف بن ايوب الى دمشق دار العشق وتملكها من يد ولد مولاه

لما خاف من بدمشق من الأمراء أن يقصدهم سعد الدين والملك الصالح فيعاملهم بما عامل به بني الداية ، راسلوا سيف الدين ليسلموها إليه فلم يجبهم ، فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن ايوب بمصر ، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين محمد بن المقدم - ومن اشبه أباه فما ظلم - (١٢٤) فلما أتته الرسل بذلك لم يتوقف ، وبادر إلى الاجابة وسار إلى الشام ، فلما